الثقافة

مجلة أدبيّة جامعة



« الوحدة » للفنان : بديع العش

حزيران — ١٩٥٨

صاحبها ورئيس تحريرها
مدحة عكاش
MADHAT AKKACHE

الثقافة
مجلة ثقافية أدبية شهرية
دمشق ص ب (٢٥٧٠) هاتف ١٦٢٩١

العدد الثاني
(حزيران) ١٩٥٨
السنة الاولى

أدب هذا الاقليم

الى مجلس رعاية الآداب والفنون

في هذه الفترة التي تخصب فيها بوادر انشاء الدولة العربية الحديثة المنبثقة عن الجمهورية العربية ، تجري الاتصالات والدراسات السريعة ، الطويلة ، العميقة بين اخصائيي جميع الوزارات من الاقليمين الشمالي والجنوبي .. وتعيش الامة العربية في هذا الجزء من الوطن الثائر المنتج ، ترقباً وانتظاراً ، املاً وتطلعاً ، الى ماتخفي الدراسة والمشاورة والزيارة ، الى مايمكن أن يكسب الشعب المناضل ، الطامح الى السيادة الحضارية الحقيقية ، من وراء الاعداد والتهيئة والعمل الحكومي.

وتكاد تبحث جميع مصالح الشعب من اقتصادية وحقوقية واصلاحية . وتكاد تعمر الحياة جميع مجالات الدولة ، وتتحرك الآلة حركة جديدة فيها عنف وقوة ، وفيها عزم وخلق ..

ولكن .. ولكن مجالاً واحدا من حياتنا ما انتبه اليه أحد بعد ، مجال الادب والفكر ، ليس في أروقة الجامعة ، وليس بين العمداء ، وليس بين موظفي وزارة التربية .. ولكن الادب الحر ، والفكر الحر في الشوارع والمقاهي ، المتشرد في أكنفة المدينة ، المنعزل في بيوت الفقر والاهمال واليأس ..

لم يسأل بعد أحد أين ادباء الاقليم السوري ، من هم ، كيف يكتبون ، ماهي منظماتهم ، ماهي آمالهم ، ماذاينتظرون من اصلاح وثورة في عالمهم .. الذي هو العالم الاعمق الاصح .. لكل امة تهب الى الحياة جديدة .

وهل نكتفي بما يردنا من بعض الصحفيين الباحثين عن الطريق ، وليس عن الحقيقي ، عن السطحي ، وليس عن العميق ، عن المعروض السريع ، وليس عن الرصين ، من بعض الصحف التي تريد ان تعرف قطرها ملامح الحياة في القطر الشمالي . !

ان مايحتاجه ، ماينتظره ، مايأمله الادباء والقراء معاً في هذا البلد ، مع المؤملين المنتظرين من ابناء الشعب ، أن يبدأ المسؤولون فينتبهوا الى واقع الثقافة كابداع وانتاج حر ، يمارسه بعض الشباب ، وتقاومه كل الظروف من مادية وقانونية وحكومية – قديمة طبعاً –

ولسنا هنا في معرض التحدث عن دور الادب في انشاء الجمهورية العربية المتحدة ، ولا عن أهمية تأثيره في خلق الحضارات ، وتأسيس العقول والنفوس ، فكل هذا معروف بدهي .. ولكننا نحب ان نشعر ، منذ اليوم ، منذ ان أزيلت الحدود المصطنعة ، ان كل ما أنشىء ، وسبق له أن اصبح نظاماً حكومياً وشعبياً في اقليمنا الجنوبي ، يجب ان يتبعه مايناظره في هذا الاقليم المتعطش للانقلاب الجذري في جميع اوضاعه .. وليكن هذا الانقلاب كذلك في اوضاع الادب والادباء ، باديء ذي بدء ، لان مثل هذه المؤسسة الاجتماعية هي التي تغدو عقلية الانقلاب الحضاري في جميع مرافق الحياة الاخرى .

والى هذا نلفت انتباه المجلس الاعلى لرعاية الآداب والفنون بالقاهرة ، والى انشاء مايناظر هذا المجلس هنا طمح دائماً أرباب الادب والفن .. ليعمل على دراسة الاوضاع العامة الظاهرة الاولية في حياة الشعوب الحية وتنظيمها ودفعها قدماً الى أهدافها .

وثمة من يتساءل هنا او في القطر الجنوبي : وهل في الاقليم السوري ادب وادباء ، فن وفنانون .. ان هذا السؤال لاتجيب عنه الا الدراسة العلمية وحدها من قبل مسؤولين من هذا المجلس بالذات . واذا كان الجواب سلبياً فلنتق منذ الآن ان الاسباب لاتكمن في الادب والادباء بقدر ماتكمن في الظروف المهدمة التي احاطت وتحيط بهم دائماً ..

ومع هذا فشعار الجمهورية العربية المتحدة كما نؤمن به دائماً : اذا كان هناك ثمة شيء موجود او غير موجود فلنعمل على ايجاده وخلقه ثانية !

– الثقافة –

مثالية الوحدة

بقلم

حافظ الجمالي

عندما قامت الوحدة بين سورية ومصر، لم ينس المؤرخون العودة الى التاريخ ليلاحظوا فيه ان عهود الوحدة بين هذين القطرين، كانت أطول من عهود الفرقة، وانه ماقامت دولة قوية في سورية الا وأرادت ان تضم اليها مصر، ولا قامت في مصر دولة قوية الا وأرادت ان تضم اليها سورية.

ولست ادري لم أجد أن هذه الملاحظات ليست بكبيرة الجدوى، ولا بعظيمة الفائدة، ولقد يحسن الكلام عنها، وتجمل الاشارة اليها الا ان علينا ألا ننسى مطلقاً ان وحدتنا الجديدة غير وحدات الامس، القريبة او البعيدة، وأنها تختلف عنها اختلافاً بيناً من كل ناحية. ويبرز الاختلاف اعظم مايبرز في اصول الوحدة اومصادرها. وفي وسائلها، وفي اهدافها.

اما من حيث الأصول او المصادر. فان من الواضح ان الوحدات السابقة، كانت نتيجـــة للفتح والغلبة، او لوحدة الفاتح؛ وليس هذا بالأمر الصحيح في العهد الذي سبق الفتح العربي، فحسب. بل هو كذلك حتى في العهود التي تلت هذا الفتح. ولم تكن وحدة سورية ومصر، في عهد محمد علي باشا الا وحدة من هذا النوع. لأنها كانت في الواقع نتيجة لظفر ابنه ابراهيم باشا في المعارك التي دارت بينه وبين الاتراك في سورية.

ومن الطبيعي. مادام الامر كذلك. ان تكون كل الوحدات السابقة عدوانية. لاشعبية. وأظن ان آخر. مافكر به العرب يوم فتحوا مصر ان يكون فتحهم منسجماً مع رغبات الشعب المصري، يومئذ، او غير منسجم. اذ ان الشيء الهام في ذلك العهد. هو تصفية احدى قواعد الخطر على العروبة الناشئة النامية، في ظل الاسلام. اما ان يكون ذلك مرضياً لمصريي ذلك العهد. او غير مرض لهم. فذلك مالا سبيل الى البحث فيه. والامر كذلك في آخر وحدة عرفتها سورية ومصر في عهد ابراهيم باشا. اذ ان المهم يومئذ لم يكن تحرير سكان القطر السوري من الاستعمار العثماني. بل كان دحر الجيش العثماني في سوريا. ودعم سلطة الحكم الجديد في مصر. فليس من الغريب اذن ان تقابل الوحدات القديمة في الشعب الموحد، بكثير من الحذر والوجوم والخوف، حتى ان التاريخ ليذكر ان السوريين كانوا في اشد صور الامتعاض من الحكم المصري في عهد محمد علي باشا، وان ذلك الامتعاض كان عاملا كبيراً في تهديم سلطة هذا الحكم والقضاء عليه.

ولئن كانت الوحدات القديمة عدوانية، لاشعبية. تتم عن طريق الفتح والغلبة، وتقوم لخدمة مآرب الشعب الفاتح او القائد الفاتح، قبل كل شيء، فان من الواضح ان الوحدة الجديدة، لم تكن شبيهة ابداً بالوحدات السابقة: انها لم تنشأ عن ارادة اي حاكم، بالرغم من مساهمة الحكام فيها، بل نشأت في سورية خاصة، عن ارادة الشعب لها، ومطالبة الشعب بها وحرص الشعب عليها. ولئن كان الشعب المصري. في اول الامر. خالي الذهن من مثل هذه الوحدة، فان من المؤكد مع ذلك، ان فرحه بها يتعاظم يوماً بعد يوم. ليصبح بالتدريج شبيها بفرح سورية بها

وعلى ذلك فان وحدتنا الجديدة لم تصدر عن مطمع شخصي لحاكم، ولا عن فيض قوة لقائد. ولا عن ظفر في معركة من المعارك. شأن الاتحادات السابقة ولكنها صدرت - في كل من القطرين بنسب متفاوتة بعض الشيء - عن ارادة الشعب الذي ادرك اخيراً معنى وحدته. وضرورات بقائه. واهمية التقاء ابنائه على صعيد دولة واحدة.

ولهذا كله. لم يكن هنالك اية وسيلة من الوسائل لتحقيق هذه الوحدة، غير وسيلة الاستفتاء الحر. ولو ان الشعب هنا صوت ضد الوحدة. او لو ان الشعب العربي في مصر لم يعلن عن رغبته بها، لما كان هنالك من سبيل لتحقيقها. ولقد كانت «القوة» في الماضي من ابرز العوامل في انشاء مثل هذه الوحدة. بل انها كانت العامل الحاسم، بصورة مطلقة، اما في هذه المرة. فقد كانت القوة تتدخل ضد تحقيق الوحدة، لا معها. وما المؤامرة السعودية - الامريكية الا احدى صور هذه القوة التي ارادت الحيلولة دون نشوء الوحدة. ولئن انتصرت هذه الوحدة الحرة على القوة التي ارادت الوقوف في وجهها، فما نظن ان لذلك معنى آخر غير صدور الوحدة عن نزوع مثالي عميق، كانت اصداؤه تتجاوب في كل النفوس العربية. لا في داخل قطرينا المتحدين وحدهما، بل في كل الاقطار العربية الاخرى.

ولم تنتصر ارادة الوحدة - كنزوع مثالي - على القوة التي تقف في وجهها، فحسب، بل انها كذلك انتصرت على كل المصالح

النفعية والانتهازية والطبقية، وحتى على المصالح الاقتصادية المشروعة فلقد كان واضحاً ان الاقتصاد السوري بعيد عن الاقتصاد المصري. وان الانسجام بينهما امر يحتاج الى جهود كبيرة، وان على الاقتصاد السوري ان يجابه فترة ركود كبيرة او صغيرة قبل ان يستعيد ما يعوض به عن قواعده القديمة، وركائزه السابقة. ومع ذلك فان ارادة الوحدة كانت هنا في سورية، اعمق من المصالح المشروعة او غير المشروعة حتى لقد صوت للوحدة، اشخاص، نحن نعلم انهم تتأذى مصالحهم بها، وتقف اعمالهم فيها، وما نظن ان النزوع المثالي الى الوحدة، يمكنه ان يصل في اي يوم من الايام الى ابعد من هذه الحدود.

وكذلك تختلف هذه الوحدة عن الاتحادات السابقة في اهدافها، كما تختلف في مصادرها وفي وسائلها. والحق ان الشعب العربي في سورية اولا وفي مصر ثانيا، لم يصوت للوحدة لينشىء دولة تزيد عن الدولة القديمة في عدد السكان، او في مساحة الارض، او في قوة الجيش او في مصادر الثروة – ولو ان هذه امور لم يذهل عنها – ولكنه صوت لها لجملة من الاهداف نستطيع ان نستعرض هنا بعض وجوهها البارزة.

اما الهدف الاول، في هذه الوحدة، فانه العمل الجدي لتحقيق الوحدة العربية الشاملة، والحق اننا لم نصوت، عندما استفتينا على الوحدة بين قطرينا – على مجرد هذه الوحدة، بل لقد صوتنا على عمل اوسع واشمل واغنى في سبيل الوحدة العربية الكاملة. فلقد كان ذهول مصر القديمة، مصر الاسرة العلوية عن القضية العربية، ذهولاً كبيراً. ولقد كان ضعف الوعي والاستعمار في البلدان العربية الاخرى، من ابرز عوامل التفتيت والتجزئة، وكان وعي سورية لدورها العربي، امراً تحده امكانياتها المادية، ومشاكلها الداخلية، ووقوفها امام اخطار كبيرة تتجاوز قدراتها الدفاعية، امـا وقد استطاع الشعب ان يحقق في سورية ومصر شيئاً من وحدته التاريخية، فقد اصبح من المحتوم على الدولة الجديدة ان تنهض باعباء القضية القومية نهوضاً جدياً، وان تكلف بـه وزارة من وزاراتها، تتفرغ له. ولا تعمل الا من اجله، ولولا ان الوحدة السورية والمصرية كانت تبدو للناس كوسيلة من وسائل تحقيق الوحدة العربية الشاملة، لما كان لاحد من المواطنين ان يفرح بها كل هذا الفرح، او ان يعتبرها نعمة من نعم الله الكبرى.

واما الهدف الثاني، فقد كان انشاء دولة حديثة بكل ما في الكلمة من معنى، فلقد خلف لنا التاريخ في كل من سورية ومصر جملة من الاوضاع الاجتماعية المتخلفة، فالمواطنون – اكثرية المواطنين – ليسوا مواطنين، بل رعايا، والفقر ليس الا القدر المحتوم للاكثرية الساحقة، والجهل هو الضريبة الوحيدة المفروضة بالعدل على الناس، والمرض هـو الامر الذي نعانيه اكثر من اية امة اخرى من الامم المتقدمة، والاستعمار هو الوضع الطبيعي لعدد غير قليل من الاقطار العربية في ظل مثل هذه الظروف التي كنا نعانيها، ونتألم منها. ولقد استطعنا ولا شك، في تطورنا الاجتماعي الحديث، ان نتغلب على شيء من مشاكلنا، وان نداوي بعض امراضنا، ولكننا عندما حققنا الوحدة، كنا نحقق كيانا جديداً نفرض عليه واجبات خطيرة في وضع اوزار التخلف، ورفع مستوى المواطنين، وتنمية الرفاهية العامة وانشاء المواطن الواعي الحر المسئول، الذي يقدر معنى وجوده في الحياة. ولم نكن نطلب من الكيان الجديد ان يتابع سيرة اسلافه في مسايرة التطور والعمل الهادىء من اجله، بل كنا وما نزال وسنظل ابداً نطالب هذا الكيان الجديد بالفقرات الثورية الضخمة في هذا المضمار.

وعلى ذلك فان هذا الكيان الجديد لا يستطيع ان يعتبر نفسه ناجحاً اذا هو ظل نسخة عن الكيانين القديمين، بل يجب عليه حتما اذا هو اراد النجاح، ان يكون نموذجاً جديداً في الحكم يشعر معه كل مواطن أن حياته اليوم احسن منها بالامس، وانها في الغد أحسن منها اليوم، ويشعر كل عربي خارج الجمهورية ان افضل صور الحياة له هي ان يتخلى عن كيانه السياسي القائم، ليعيش هو والعرب جميعاً في ظل هذه الجمهورية واذا كنا لا نشك مطلقاً في ان صور الحكم التي سبقت الوحدة كانت تقدمية، جريئة في تقدميتها، وثوريتها. ولا سيما في مصر فان لنا مع ذلك. كل الحق في الدعوة الى اسلوب جديد في الحكم ارقى بكثير من صور الحكم السابقة.

اما الهدف الثاني من اهداف هذه الوحدة، فهو الارتقاء بالوجود العربي الى مستوى الطموح العربي، ويجب ان نلاحظ بكل وضوح ممكن، ان العربي في العصر الحاضر يعاني تناقضاً ما بعده تناقض بين مستوى وجوده وبين مستوى طموحه: انه يشعر شعوراً كاملاً بوجوده ويعي وعياً تاماً مقتضيات كرامته ولكنه يرى في الوقت نفسه ان ارضه هنا وهنالك مغصوبة.

البقية على الصفحة «١٨»

ابيات شعري

سليمان العيسى

أريدهـــا هفافـــة كالصبا
ناعمـة مثل رفيف الأقـاح
يلهو بها « غيلان[1] » أنشودة
بين صغار الحي .. عند الصباح
يفك باللثغـــة أسرارهـــا
وتلتقي فيهـــا رؤانا السماح
ساذجـة مثل ابتساماتـــه
وادعة .. كالفرخ لم الجناح
أريدها .. لولم يضج الأسى
حولي ،وتستصرخ لهاتي الجراح

●

أريدهـــا .. أغنية للهوى
تضمها في الصدر عـــذراء
تطوف بالكأس رقيق الخطى
وينتشي فيهـــا الأحبـــاء
في كل لفظ وردة حلوة
حياتهـــا عطر ، وأفيـــاء
يرتاح في واحتهـــا متعب
فالظل بعـد الجهد ، والماء
أريدهـــا .. لو لم تهز الدجى
حولي استغاثات ، وأصداء

●

أريـــد أبياتي مروجاً على
دربك أحلى من بساط الربيع
تفرش روضاً أخضراً أينما
سارت ،فثوب الارض بيت بديع
لكنني لم أخط الا عـــلى
حرائق في وطني ، أوصقيع
لم يتركوا قطرة ماء ، بلى
ضجت طريقي، فسقوهاالنجيع
لا كان لي قلبي ، اذا لم تعش
في خفقة منه قلوب الجيع ...

●

ألفظة الحلوة يلهو بهـــا
مستغرق في حـــلم دافىء
لم يستطعها زورق مجهد
يصارع الموت الى الشاطىء
لم استطعها .. بيننا امة
تضج بالمأساة ، يا قارئي
أبيات شعري صرخات على
شفاهـــذا الموكب الظامىء
لا فرق ، والموكب في زحفه
لا فرق بين الميت اوالهادىء

●

ألفظة الملساء مثل الدمى
تصب في الآذان شكوى الترف
أمقتها .. أمقت تزييفها
أصالة الحب ، وعطر الشرف
أمقتها .. تحمل لي قصة
عن سهم جفن بالأسى ما انطرف
لي هدف من كل حرف .. بلى
وأضلعي المحترقات الهـــدف
ألشعر في معركتي قطرة
تبل في الساحة جرحاً رعف

●

ألشعر .. لا ، لم يك اغرودة
يوماً ولا قيثارة .. تحلم
هو الحيـــاة .. انطلقت نغمة
تبني - كما تختـــار - او تهدم
الشعر ، ان اخلق في ثورتي
من كل قاع ذروة تلهم
ان ابني الكون ، كما يشتهي
غدي الجميل المشرق الاكرم
الشعر بعض الله في وهجـــه
يضاء هذا العالم المظـــلم ..

●

دعني لابياتي التي حطمت
جناحها وهي ترود القمم
لن ابلغ الذروة ، حسبي اذا
رنوت اني بالاعالي حـــلم
حسبي شعوري انني نبضة
يحسها الماضون في المزدحم
يا رائدي الذروة .. اني لكم
يازارعي البشر بقلب الالم ..
احبـــكم .. يا من تمزقتم
لكي تضيئوا كوة في العدم ..

(١) طفل الشاعر

الأمة والوطنية والقومية

بقلم

زكي الأرسوزي

لقد أصبحت المفاهيم التي تلخص الاماني العامة ملتبساً بعضها ببعض كل الالتباس، والالتباس يسبب الابهام في التفكير ويؤدي الى التردد في العمل. ونحن ! نعود الى الحديث عن مفاهيم « الامة والوطنية والقومية » نرجو من هذه العودة ازكاء البصيرة في هذه الشؤون وشد ازر الارادة في صبوتها الى الخير العام . ونحن نرى من الفائدة أن نبدأ بالكشف عن أسباب الالتباس قبل أن نقدم على استجلاء الحدس المتضمنة في الكلمات .

وأما أسباب الالتباس فترجع بحسب مانعتقد ، الى أمرين معاً ؛ أولهما عدم مراعاة طبيعة اللغة العربية في نقل المفاهيم من اللغات الاوروبية الينا ، وثانيهما عدم تمثل المفاهيم المنقولة تمثلًا واضحاً .

من المعلوم بحكم البداهة أن الحضارة الحديثة قد بدأت بنقطة تحول في التاريخ . ونقطة التحول هذه هي اكتشاف الطبيعة وجعلها قبلة للانسان .

كانت الفكرة المهيمنة على الناس في القرون الوسطى هي أن الدنيا « دار الفناء » مدخل للآخرة «دار القرار» ، وكانت رابطة الايمان أشد قوة من غيرها . وكانت القوانين أوامر الهية أو تفسيراً لها . وكان خليفة في الشرق وبابا في الغرب يقيم كل منهما الاحكام باسم الديان . وكان المحاربون يحملون اما شعار الاسلام واما شعار المسيح .

ولكن لما اكتشف كوبرنيخ الارض كجرم بين الاجرام السماوية ، تخضع واياها لقوانين الطبيعة ، ولما اكتشف كولومبس أمريكا مؤيداً القول بكروية الارض ، ولما اماط غاليله اللثام عن خرافة تقسيم الاجسام بين علوية وسفلية ، لما تم ذلك ظهرت وجهة نظر جديدة في الكائنات . وكان التاريخ المعاصر انكشافاً لوجهة النظر تلك . وعندئذ اعيد الى العقل اعتباره ، فما يبنيه بناء سليماً تؤكده التجربة ، افليس العلم نبوة ؟

وعندئذ اخذ الواجدان مرجعاً في امر تميز الفضيلة من الرذيلة .

هكذا بدا الطبع الانساني منطوياً على مقوماته انطواء الحياة على الغرائز ، وما أن بدا العقل مؤهلا لمعرفة الحقيقة ، والوجدان ذا صبوة الى الفضيلة ، حتى تحول الراي العام عن نظام الولاية ، ولاية الملوك والكنيسة على العوام ، الى نظام ديموقراطي يشترك فيه الناس على قدم المساواة في تشييد الدولة وما ان تحول مركز الاهتمام عن الآخرة الى الدنيا حتى بدات الرابطة الطبيعية بين ذوي القربى تقوم مقام رابطة الايمان المشترك كان من جراء هذا التحول ان عاد الناس الى لغة الام مهملين لغة الكنيسة (اللاتينية في غربي اوروبا واليونانية في شرقها) وان عاد الناس الى مناقب الاجداد مهملين قصص التورات .

هكذا كان بعث تراث الاجداد نتيجة حتمية لعودة الانسان الى الطبيعة . والبعث القومي قد بلغ أوجه عندما تزعم هتلر ، الكاثوليكي المذهب ، المانيا البروتستانتية ، وعندما اصبح دومرغ البروتستانتي رئيساً على الجمهور الكاثوليكي في فرانسا .

ولكن اذا انتصرت الاخوة الطبيعية على الاخوة في الدين فان القرابة الجديدة قد اختلف عليها بين اعلام الامم الحديثة كل يتخذ عناصر مفهومه من تاريخ امته الخاص . ففرانسا مثلًا لاتينية في ثقافتها مختلفة الاجناس في تكوينها تقيم العلاقة بين ربائبها على اساس الجوار ، فيغلب عليها طابع الوطن اي الارض وماينجم عنها من مصالح واماني مشتركة ، واما المانيا وهي ذات تكوين قبلي تقيم العلاقة بين ابنائها على مبدأ النسب فتحمل الطابع القومي « بنو قوم الانسان اقاربه الذين يفزعون له » .

ومادام الالمان والفرنسيون وهم محور الحوادث في النهضة الحديثة يختلفون على قضية الاخوة الطبيعية ، فكيف لا يعتري والحالة هذه ، المفاهيم الوطنية والقومية الابهام ؟

هناك عامل آخر للالتباس في المفاهيم الاوهو ان الكلمة في اللغات الاوروبية تخضع في تطور معناها لتطور الراي العام في حين ان الكلمة العربية ذات بنيان اشتقاقي ، فهي من شقائقها التي ترجع واياها الى مصدر مشترك بمثابة النغم من الانغام الاخرى في الانشودة يتعين معناها بعلاقتها مع اخوتها ولما كانت الكلمات في اسرتها موزعة بين مايحمل منها طابع المحسوس وبين مايحمل منها طابع المعقول ، فقد اصبحت الكلمة ذات الطابع الحسي تعريفاً اولياً للكلمة ذات الطابع العقلي . وهكذا تدل كلمة « ذكاء ـ الشمس » على معنى الذكاء كاشراق في النفس ، وتدل كلمة « عقال ـ رباط » على معنى العقل كقدرة على ربط الافكار ، وتدل كلمة « شارع » على الشريعة كقاعدة تسلك

عليها الناس في الهيئة الاجتماعية .

وعلى ضوء ما تقدم نتناول الآن الكلمات التي اتخذناها عنواناً لمقالنا . فكلمة « امة » ترجع هي والام الى ذات المصدر ، فتبدو في الحدس العربي كامتداد للأسرة ، اي تقوم على بنيان روحاني مشترك ، الام تصدر عنها الابناء وهي منهم محط الآمال والامة يصدر عنها الاخوان اعضاء المجتمع ، وهي لهم معين ينهلون منه الثقافة .



ولكن الامة تظهر لدى التأمل في معالمها كعقيدة ايضاً . ونحن نتخذ كلمة « عقيدة » بالمعنى الاشتقاقي « اي بالمعنى الذي توحيه صورتها الحسية « عقد الجنين » او « عقد الزهر » فكما ان الحياة تنعقد على الجنين كمصور، ثم تنتقل من طور الى آخر حتى تستكمل شروط نموها بالشيخوخة ، فان الامة هي ايضاً بداية حياة جديدة تكشف عن فحواها باداة بيانها ، بلغتها وبما أقيم على المعاني المتضمنة في الكلمات من عرف وفنون وديانة .. الخ اليست الشريعة استجلاء للحدس المتضمنة في كلمات عدالة «عدلي الفرس » وُحق « حِقّ الزهر » حق المرء ، يعني جرنه ، اي فلك شخصيته .

ان الامة لهي عبقرية تتخطى حدود التجلي الى انشاء صور تحقق بها معنى تجربتها في الوجود اوضح فأوضح . مثلها بذلك كمثل الكائن الحي . هذا ينشىء من الغذاء المقتبس قوتاً من الطبيعة انسجة واعضاء ينشر عليها فحواه منتقلا من حالة ترشيم (رشم ـ رسم) الى حالة شيخوخة (شاخ الزهر فتفتح عن كامل مكنوناته) وتلك تنشيء من الاصوات لغة تودع فيها تجاربها وترسم باستجلاء الحدس المتضمنة في الكلمات سياها .

وهكذا تبدو الامة شجرة سحرية جذورها في الطبيعة وتجلياتها نحو الملأ الاعلى . واما كلمة (وطن) فتعني الارض ، موطيء اقدام الاجداد ، المجال الحيوي للجماعة ، والوطنية هي شعور المرء بالحنين الى محل انكشاف شخصيته . ومن هنا جاءت استعانة المربين بالتاريخ والجغرافيا مقترنين ، على ربط الاجيال بالمجال الحيوي للامة .

ولكن هل يبقى تأثير الارض على ايحاء شعور الحنين فحسب ؟

الا يتعدى ذلك الى تحديد مصير الانواع والامم ؟ فمن يجهل تأثير الارض على تحويل بذور البطيخ من الجلب الى البلدي مثلا ؟ اولا يرجع كذلك تأثير الارض الى شروط مماثلة الشبه في المصير بين اليابان وبريطانيا من حيث موقعهما كجزيرتين الاولى بين اوروبا وامريكا في المحيط الاطلسي ، والثانية بين آسيا وامريكا في المحيط الهادي؟

ومع ذلك فان الامم تختلف من حيث موقفها من مؤثرات البيئة ، موقف المسلم لها او المقاوم . وأسطورة خلق الانسان عند كل من الشعوب الآرية والسامية ترمز الى هذا الاختلاف . فاذا اعتقد الآريون بأن الانسان ابن الارض معبرين باعتقادهم عن تأثير الارض على تشعبهم ، فنحن نعتقد بأن آدم وان كان كيانه مقتبساً كقوت (أدامة) من أديم الارض ، فانه أي آدم على مثال باريه ومن فيضه . وهذا يعني اننا بحسب الاسطورة اولاد السماء اي ان الطابع الثقافي الروحي هو نبرة الايقاع في مصيرنا . والثقافة حاجز يخفف من وطأة البيئة على تكييف الانسان ولما قال عمر بن الخطاب لفريق من العرب: لا تقولوا كسواد النبط اننا من القرية الفلانية ، بل قولوا اننا من العشيرة الفلانية ، كان يفصح بهذا القول عن وجهة نظر العرب في هذا الشأن .

وهذا القول يصدق علينا حتى اليوم ، فلما اعلنت الجمهورية المتحدة وفي الاعلان الغاء لهيكل الدولة السورية ونقل للعاصمة من دمشق الى القاهرة ، اقام اهل الشام اعياداً لم يشهدها تاريخ سوريا مثيلا من قبل . وهل اختلف عرب سوريا في موقفهم من الاتحاد عن موقف افراد عشيرة عنزه في تضامنهم كاخوان مستقلين عن حدود الاقاليم : والى هذا التكوين الخاص بنا ترجع ثورة الطلاب على استعمال المدرسين كلمة « شعوب عربية » مستنكرين بذلك تأثير الارض على تشتيت الشمل .

اما كلمة « قومية » مشتقة من « القوم » فتعني المواطنين الذين يهبون للذود عن حياض الوطن ، ويشتركون في تشييد الدولة وتشييد الدولة يتطلب بصيرة نيرة في الامور العامة وشكيمة من القوة بحيث يتم الاشراف على تنفيذ القوانين من قبل الموكل اليهم في الشؤون العامة وعلى هذا فان القومية امنية تتحقق بمقياس ما تتم تربية المواطنين احراراً ، مثل المجتمع المستوفي شروط كيانه كمثل القصيدة الرائعة تظهر روعتها في جملتها وفي كل من الصور التي تعبر عن الالهام من وجهة نظر معينة .[1]

(١) وفي العدد القادم نتحدث عن القومية بمزيد من الشرح .

طريق الحرية

بقلم
نسيب الاختيار

كان موسم المسرحيات قد بدأ في برلين الغربية ، فعاد الى العاصمة التاريخية نشاطها الفني بعد ان اغفى فترة من الزمن على وشوشـــة الرياح ، وهمسات الاوراق ، وحفيف السحب ، وكانت الجرائد اليومية والمجلات الاسبوعية ، طافحة بالاعلانات المنشورة على صفحاتها ، فمن اعلان عن مسرحية (دون جوان) الى اعلان عن مسرحية (اودين) الى اعلان عن مسرحيـــة (سيفغريد) وكنت كلـــما هممت بالشخوص الى المسرح ، امسك بي شعور غامض ، وران علي احساس مبهم فالزم داري لاازايلها ، وغرفتي لا ابرحهـا ، الى ان كان مساء من تلك الامسيات الكثيفة التي يخيل فيها الى الانسان ان كل شيء في هذا الوجود قد اطبق عليه ، وانـــه ضجر برم حتى بنفسه ، فبينما كنت اتصفح حيثما اتفق مجلة اسبوعية اذ وقع نظري على اعلان عن مسرحية (افروديت) وتراقصت سطور الاعلان في نظري في موجات دافقة . ومن زبدهـا الفضي ، تجلت لي الغانية الاسطورية .

في غمرة هذا الضباب الذي لفني ، تناولت معطفي وانطلقت الى المسرح لاشاهد مسرحية (افروديت) التي انتزعتـني من عزلتي ، ومن جوي السام الشاحب .

كان المسرح غاصاً بالزوار الذين خفوا اليه من كل ناحيـة حتى من القطاع الاميركي والبريطاني والفرنسي ، لغات متباينة ولهجات متعددة ، تحمل ريح الشمال اصداءهـا ، فتنساب في اجواء برلين الغربية ، بابل اوروبا .

اخذت مكاني في الوقت الذي كانت فيه الاجراس تدق معلنة بدء الحفلة ، وراحت الحركة تخفت تباعـا ، والاضواء تشحب شيئاً فشيئاً ، وساد سكون ، بددتـــه معزوفة لـ (تشايكو فسكي) صفق لها جمهور النظارة تصفيقاً متواصلا ، وما كاد الستار يرفع عن المسرح ، حتى عاد السكون سيرتـه الاولى ، وكان الفصل الاول من المسرحية ، اما الفصل الثاني ، فقد كان مسرحية حياتي .

خرجت بعد الفصل الاول من المسرحيـــة الى منتدى (الاوبرا) مع من خرج من الناس ، والى جانب النافـذة المطـلة على الطريق وقفت ، وقفت وانا ادخن سيجـــارة ، واستعرض الناس الذين احتواهم المنتـــدى ، كانوا فرادى وجماعات يتحدثون ويدخنون فمـن نظرة اغواء مسدده الى بسمة معلقة ، الى حركـــة مصطنعة ، كانت هذه المخلوقات ، تمثل دورها على مسرح الحياة ، هي بنفسها تؤلف المسرحيـة ، وهي بنفسها تمثلها ، وهي بنفسها تشاهدها كانوا كما بدا لي من اول وهلة ، مخلوقات اخرى ، غير المخلوقات التي تحيا في واقع وجودها ، وبينما كنت مستغرقا في تصفح هذه الآليـــات البشرية المتحركة رن في اذني صوت غريب ، كما لو انه صوت صادر من آلة وترية :

نارك ، سيدي ، نارك .

واستدرت الى مصـــدر الصوت ، كان صوت امرأة ، مدت نحوي ذراعا عاريا كما لو انه زنبقة بيضاء ، واشرعت بين اناملها سيجارة طويلة ، ولما نظرت اليهـــا ، رنت الي بنظرة شعرت معها بانها تطل من ظاهري الى اعماقي ، وانها اذ ترسل هذه النظرة تغوص في تؤدة ولين الى قرارة نفسي ، ولما مددت لها يدي بعود الثقاب ، كان النظر قد علق بالنظر . وحتى هذه الساعة ، بلى حتى هذه الساعة لا اذكر كيف اشعلت لفافتهـا فقد كانت لحظة ، هي اصل ضياعي . قالت لي وقد ارسلت في الفضاء نفثة من نفثات اللفافة :

– انها رائعة ، رائعة اليست كذلك ؟

ولم اكن اجيد الفرنسية اجادة تامة ، فقلت لها في صوت متهدج :

– نعم كانت رائعة ، رائعة حقا سيدتي .

– يخيل الي انها تمثيلا اقوى منها كتابة اليس كذلك ؟

– نعم ، لاريب ، سيدتي

– افروديت اي روائي قرأت ؟

– في الواقـــع لم اقرأ الا افروديت الاسطورة ، ليس الذنب ذنبي ، انه ذنب المهنة انا مهندس ميكانيكي سيدتي .

– مهندس ميكانيكي ، ياللمهنة الرائعة ، انها مهنة العصر .

ورمتني رفيقتي المجهولة ، بنظرة غامضة خاطفـة من خلال جفون اطبقت على بعضها اطباقا ناعسا ، وهي ترسل دخـــان لفافتها ، قصيرا متقطعا ، ورن الجرس مؤذنا ببدء الفصل الثاني

وخيل الى ان ابتسامة غبطة شاعت في قرارة نفسهـا ، وهي تستمع الى صوت الجرس ، فبسطت يدها الي وقالت :

– هل لك في قدح بعد انتهاء الفصل ؟

– رهن اشارتك سيدتي

واحنت رأسها في ايماءة خفيفة ، ومضت في خفة قطـــة وحشية ،اما انا فقد مضيت الى مقعـــدي واخذت مكاني ، وعزفت الموسيقى ورفعت الستارة ، وبـدأ العرض ، وماج المسرح ، جرى كل هذا كان لاشيء في مدى دنياي ، فقـد كنت في دنيا ثانية ، افكر بهذه المخلوقة التي طلعت علي فجـأة من وراء سجف الغيب ، ثم لما مضت ، مضت في اعقابهـــا ، افكاري ومشاعري ، كأني لم اعرف امرأة غيرهـا فيما سلف من ايامي . وانا ذلك الانسان الذي لم يعلق بامرأة في حياتـه اذ عشت زير نساء . اتنقل من واحــــدة الى اخرى . وكان الوفاء للمرأة في عرفي لايعدو ضربا من ضروب الكسل اونوعا من انواع الضعف . كان اخواني يعزون هذا التقلب الى طبيعة مهنتي التي جعلت مني مخلوقا ميكانيكيا ، ينظر الى المرأة نظرته الى قطعة من قطع (التبديل) اما انا فقد كنت اعزو هـذا التقلب العاطفي . الى طبيعتي الفنية التي ورثتها عن امي . هذه الطبيعة التي تنظر الى الاشياء في جدة مستمرة وفتوة مطردة وان كل شيء له كنهه الذي لامثيل له ولا نظير وان الانسان حتى يكون انسانا حقا لابد له ان يكون فنانا يحيا الجمال .

ولكن المرأة المجهولة التي تعرفت اليها كانت عالما نسائيـا آخر عالما يحس الانسان وهو مقبل عليه انه امام دنيا لانهاية لها ولا حدود وان سلاح الخبرة التي زودته بهـــا التجارب الماضية مغلول مفلول وانه سيمضي في طريق طويل ولا سلام له ولارائد ومع هذا فهو لايتوقف ولا يتردد بل يندفع دون ان يفكر كأن صوتا مجهولا يدعوه اليه اما الى اين المطاف .

كذلك كان شأني مع تلك المرأة فقد انقضى الفصل الثاني من المسرحية واعلنت النهاية وانا احيا دنياي في دنياها كما لو ان مامضى من ايامي لم يكن شيئـا مذكورا الا اليوم حيث عشت الابد في لحظة واحدة .

ولما غادرت القاعة كانت في انتظاري عند باب المسرح والى جانبها امتطيت سيارة التاكسي ومضينا معا .

ادرت عيناي فيما حولي عندما أفقت في اليوم التالي فلم ار مألوف ماتطالعني به غرفتي كلما نهضت صباحا كان جو الغرفة غريبا عني مجهولا مني فلا النافذة نافذتي ولا المقعد مقعـــدي ولا السرير سريري ورفعت يدي الى راسي الذي يبرح به الصداع متسائلا : اين انا؟ وكيف اتيت الى هذا المكان ؟ هل انا في بيتها في غرفتها ولكن ولكن اين هذه المخلوقة هـذا الطيف المنساب كالظلال ؟

ونهضت ورحت امشي في هذه الغرفة الخاوية الخالية ماهي بغرفة غانية ولا بغرفة فندق اي شيء هذه الحظيرة البشرية ؟

ووقفت امام الباب كان من انواع ابواب الكهوف العتيقة ابواب الخانات الكلاسيكية وقفزت الى ذهني فكرة رهيبة ليس هذا الباب باب كهف ولاباب خان انه باب محكمة من محاكم (التفتيش) وشعرت برعدة تتمشى في كياني ورددت بصوت خافت !

– ايمكن ان يكون ذلك وما الداعي اليه ؟

ومن اعماق وجداني سمعت صوتا هامسا يقول :

– ولم لا ؟

وقف شعر رأسي ، فضربت الباب بقبضتي وصحت :

– افتحوا الباب .ورددت ارجاء الغرفة اصداء صوتي فاجتاحني خوف وتراجعت الى الوراء وقد امسكت برأسي بين راحتي وجلست على حافة السرير وعبثا حاولت في تلك اللحظة ان استعيد حوادث ليلة امس، فقدغمت علي والتبست ولم اذكر الا كلمتها الاخيرة :

والآن ، يادون جواني ، انتهى كل شيء .

وتعالى صرير كان صرير الباب فاستويت على قدمي كما لو ان سلكا كهربائيا مسني ووجهالوجه وجدت امامي رئيسا (كابتين) فرنسيا بادرني بتحية الصباح بالالمانية وقال :

– ارجو ان تكون قضيت ليلة سعيدة وما كادت كلمة الكابتن تتسامى الى اذني حتى انتفضت وصحت به :

– اين انا ؟ من جاء بي الى هذا المكان ؟

– انت ياسيدي في القطاع الفرنسي من برلين ، وقد جئت اليه من تلقاء نفسك وبملء حريتك .

– نعم ياسيد نعم .

– هذا مستحيل .

– ولكنه الحقيقة ، لقد اتيت برفقة سيدة فرنسية وسلمتني بيدك عقدا مذيلا بتوقيعك .

– ماذا تقول ! برفقة سيدة ؟ وعقدا مذيلا بتوقيعي ؟

ـ عقد تطوعك في الفرقة الاجنبية .

ومادت الارض تحت قدمي وزاغ بصري وعراني دوار وببطء خطوت خطوة الى الوراء وجلست على حافة السرير وانا في شبه غيبوبة بينما اقترب مني الكابتن وراح يربت على كتفي ويهتف بي قائلا :

ـ هون عليك ليس الامر من الفداحة بمكان .

ورفعت بصري اليه وقد عاودتني سورة الغضب .

ـ انت لص ، انت مجرم .

ولما حاول ان يربت على كتفي من جديد دفعت يده عني ونهضت واقفا وصحت في وجهه :

ـ من انت ، انت ضابط ، انت واحد من عصابة قطاع الطرق من تظنني ايها الوغد ؟ انا الماني افهم هذا جيدا ، انا الماني.

وبصوت بارد كالثلج اجابني :

ـ هر كراول اصغ الي جيداً : لقد جئت بك الى هـذا المكان لانك الماني ، الماني بالضبط .

وعن على بالي وهو يقول هذا الكلام ، انه فرنسي موتور جاء بي الى هذا المكان ليثأر من المانيا في شخصي فقلت له :

ـ اذا كنت تحمل في نفسك ضغينة مميتة ضد الالمان فليس في عملك شيمة الضابط الفارس .

ـ انت واهم هر كراول انت واهم لقدجئت بك الى هذا المكان لاعمل واياك في خدمة شريفة .

ـ خدمة شريفة ؟ ومن قال لــــك ان اكراه الناس على التطوع في الفرقة الاجنبية خدمة شريفة ؟ وخطا نحوي خطوة وبصوت رقيق ناعم قال :

ـ ان الحضارة الغربية لم تتعرض في يوم من ايامها لخطر نظير الخطر الذي تتعرض له اليوم وعلى الرجل الابيض مهمة انقاذ هذه الحضارة .

ـ خطر يهدد الحضارة ؟

ـ نعم هناك في افريقيا الشمالية ،في الجزائر ثورة ، ثورة تهدد حضارة الغرب ، والغرب كله مدعو للقضاء على هذه الثورة هذه هي مهمة الرجل الابيض ياهر كراول .

ـ هذه مهمة حكومات لامهمة افراد ياسيدي الكابتن .

ـ الحكومات وحدها لاتغني لابد من متطوعين لايؤمنون برسالة الرجل الابيض فحسب بل يؤمنون ايضاً بالتفوق العنصري بالتفوق الغربي .

ـ ومن ذا الذي قال لك ياسيدي الكابتن ان هذه المهمة ملقاة على عاتقي دون سائر الناس اجمعين .

ـ لافرق في الواجبات بين الناس انت الماني وانت اوروبي وانت مدعو لانقاذ حضارة الغرب وتحقيق مهمة الرجل الابيض وتفوقه العنصري ولاتنس ياهر كراول ان لبلادك مصلحة في قمع ثورة الجزائر .

ـ بلادي لها مصلحة في قمع ثورة الجزائر !

ـ نعم ان المانيا الفيدرالية هي احدى دول السوق الاوروبية المشتركة. وردد هذه الكلمة اكثر من مرة ، وهو منتصب القامة كما لو انه يصدر امرا عسكريا وقال :

ـ مهما يكن الامر لقد وقعت بيدك عقد تطوعك وانت ملزم بتنفيذه ورجع خطوة الى الوراء واستدار وغادر الغرفة .

ولما اصبحت وحيداً جلست على حافة السرير ورحت استعرض المشاهد الغريبة العجيبة التي مرت بي خلال هذه الفترة القصيرة من الزمن وشيئا فشيئاً عادت الى ذاكرتي حوادث الليلة الماضية .

لقد تركت الاوبرا ورفيقتي الفرنسية المجهولة بعد انتهاء المسرحية وتوجهنا معا الى احدى حانات برلين النائية بغية تجنب عيون الرقباء وقادتني الى حان لم اطرقه في يوم من ايامي ودخلنا مقصورة منفردة وشربنا (البراندي) ورحت اتحدث اليها عن حياتي القاحلة الجرداء وكانت تقبل علي بوجهها وتداعبني وكلما فرغ قدحي اترعته من جديد .

وذكرت انها حدثتني عن نفسها فقالت ان حياتها فارغة نظير حياتي وان بها لهفة جارفة لملء هذا الفراغ وانها مغرمة بالسياحة ضربت في فجاج الارض ولكنها كانت في كل مرة تزور فيها بلدا من البلدان تشعر بمرارة الوحدة حيث لايشاركها انسان في تملي مجالي العالم ومرانيه وتندغم واياه في شعور واحد وفكر واحد وكانت وهي تردد هذه الكلمات ترددها بصوت خفيض حنون اثار بي رغبة جامحة في مشاطرة هذه المخلوقة الفاتنة مباهج الحياة ولما اعربت لها عن رغبتي انحنت علي وقبلتني وسقتني كأساً كبيرا مترعا وقالت :

ـ ولكن انتم الرجال . .

ـ نحن الرجال ؟

ـ نعم انتم الرجال لاعهد لكم ولازمام .

ـ نحن الرجال لاعهد لنا ولازمام اقسم لك انني . . .

ـ لاتقسم ياكراول لاتقسم

ـ لا بل ساعاهدك ...

ـ هذا كلام ليل

فوقفت على قدمي وانا اترنح من السكر وقلت لها :

ـ اقسم لك صدقيني

وبعد ذلك لا اذكر ماذا جرى وكيف وقعت العقد .

ذكرت هذا كله وانا استعرض حوادث الليلة الماضية فادركت ان غانيتي المجهولة لم تكن الا فخا ينصب لي ولا مثالي من الرجال .

عزمت منذ اليوم الذي حملت فيه الى مدينة (فيليب فيل) في الجزائر على ان أبدأ حياتي من جديد ، والا اعود الى الماضي ، وان احيا واقعي ، فقد علمتني الحوادث والاحداث ان المقام الذي انا فيه ، لن يجدي معه الا التجاهل والنسيان والرضى ، وان السعادة ألحقة في مثل هذا الموقف ، هي سعادة انسان لا تاريخ له . فكانت الايام تنساب امامي بطيئة رتيبة ، كأنها لاتهمني ولا تعنيني ، وكأنها لا تسلخ من عمري .

اردت ان احيا خارج المجتمع ، في الوقت الذي كنت في عبابه ، يحملني مده وجزره في موجات متلاحقة متتابعة .

ولكن ما اردته ما كان في الامكان ان يستمر الى الابد ، فقد كانت الامور تسير على غير ما اشتهي وخلاف ما احب ، كنت انهض في الليل ، على دوي القنابل ، وازيز الرصاص ، ولهب النار وحم الموت كنت انهض في الليل على الفزع وهو يمشي في الدروب والهول وهو يزحف في الطريق فاجلس فوق السرير وادخن سيجارة تلو سيجارة وانا في ضباب حلم شارد وما كان في مقدوري في مثل هذه الساعات ان اتجرد عن نفسي واعيش في معزل عما حولي واحيا كما عزمت عليه اذ كان جوي يحملني الى جو الآخرين الى جو اولئك الذين حملت الى بلادهم لا قاتلهم تحت راية مهمة الرجل الابيض والتفوق العنصري ومصلحة السوق الاوروبية المشتركة فكنت وانا افكر في هذه القيم والحرب التي يخوضها الفرنسيون في سبيل الحفاظ عليها والدفاع عنها كنت اسائل نفسي :

ـ هل تساوي تلك القيم مأساة هذه الحرب الدامية ؟ ومن ذا الذي عهد الى الرجل المهمة الابيض التي انتدب اليها ومن ذا الذي قسم الناس عناصر مختلفة متفوقة ومنحطة ؟ ومن هم هؤلاء الذين يفيدون من السوق الارروبية المشتركة ؟

وكان الجواب على هذه الاسئلة التي تضطرب في ضميري انهم اولئك الذين لم يتعظوا بعبر التاريخ الذين مازالوا بعقلية القرون الحالية اولئك الذين مابرحوا يعتقدون بانه في الامكان المضي في استثمار الانسان للانسان واستعباد الدولة للشعب . ان قيمهم هي اصل المأساة انها افيون الشعوب ، انها السوط الذي يلهبون به ظهور الناس . وفي الليلة الاولى التي وصلت فيها الى مدينة (فيليب فيل) افقت على دوي اصوات الدمار والموت فانتصبت على قدمي قلقا مضطربا وفتحت باب غرفتي ومضيت الى غرفة خادمي (الفيتنامي) وايقظته من سباته وصحت به :

ـ ماذا حدث

ـ لاشيء ياسيدي لاشيء

ـ وهذه الاصوات !؟

فاجابني وهو يبتسم :

ـ انهم يؤدبون العصاة في المدينة ؟

ـ ومن ذا الذي جاء بهم الى هنا ؟

ـ انهم في كل مكان في كل حي في كل درب .

ـ في كل مكان وفي كل حي وفي كل درب وانت نائم؟

ـ لقد الفت اذناي هذه الاصوات وستألفها انت ايضاً ياسيدي وسننزل بهم ضربة قاصمة انهم عصاة جناة . انا اكرههم وامقتهم .

لقد جاؤا الى بلادنا فيما مضى وحاربونا

ـ ومن جاء بهم الى بلادكم ؟

ـ فرنسا سيدي انها فرنسا

ـ ومع هذا فانت تقاتل تحت راية فرنسا !؟

وتركت الجندي (الفيتنامي) وعدت الى غرفتي وانا افكر في هذه المهزلة . لم تقنع فرنسا باغتيال حريات الشعوب بل انها تلقي العداوات بين بعضها بعضاً انها تكره هذا الشعب على قتال الشعب الآخر ، ثم توغر صدور الفريقين. هذا هو الاستعمار.

وقلت لنفسي وانا استلقي على سريري :

ترى هل آن الاوان للشعوب المغلوبة على امرها ان تدرك ان تضامنها هو طريق خلاصها ؟

هل آن الاوان ؟ ولكن .

ومن جديد عدت لاحدث نفسي متسائلا :

ولكن هل يكفي تضامن الشعوب المغلوبة على امرها وحده للقضاء على اخطبوط الاستعمار ؟ هل يمكن لها ان تحقق تحررها دونما تضامن مع الشعوب الاخرى شعوب اوروبا واميركا ؟ ان الذين يستعمرون شعوب آسيا وافريقيا هم انفسهم الذين

يستثمرون شعوب اوروبا واميركا ، انهم اغصان شجرة واحدة الشجرة المتوحشة المجرمة التي تحيا على امتصاص الدماء .

ومنذ تلك الليلة بدأت أشعر بان مصيري ومصير الملايين من الناس المستغلين والمستعبدين مربوط ببعضه بعضا وان تحرر اي جانب من الجانبين ، لاسبيل اليه الابتحررهما معا وان معركة الجزائر هي فصل من فصول مسرحية الاستعمار الكبرى المسرحية التي كانت ومازالت تمثل على مسرح الوجود منذ اليوم الذي قام فيه النظام الاقتصادي على اساس استثمار الانسان للانسان .

وكانت الليالي تتوالى تباعا ، انهض خلالها على الاصوات المدوية ، وكلما حاولت النوم لاحقني صدى انين يتسامى الى مسمعي كرنين الاجراس ، فأستوى على السرير في انتظار نجمة الصبح .

ولكن الشيء الذي لم ادركه الا فيما بعد ، هو ان مصدر قلقي لم يكن تلك الاصوات الرهيبة المدوية ، وانما هو هذا التطور الذي طرأ على مجرى أفكاري ، فجعلني في قلق ممض، وحولني من حال الى حال ، اذ بدأت احس بأنني اساهم في حرب مجرمة واني مسئول امام ضميري الوطني والانساني .

غير ان الامر الذي حرصت عليه اشد الحرص ، هو ان ادفن في اعماقي ، افكاري الجديدة ، لئلا اعرض نفسي للضياع ، وان ارقب الفرصة المواتية التي تتيح لي تحقيق تلك الافكار .

كانت الحفلة التي اقامتها القيادة الفرنسية ، بمناسبة عيد الرابع عشر من تموز ، حفلة انيقة فخمة صاخبة ، حاول فيها الفرنسيون ان يظهروا بمظهر المعتد بنفسه الواثق بالنصر ، فتوجهت الى النادي العسكري المزدان بالاعلام والانوار ، ولما ولجت القاعة الكبرى ، مضيت الى (البوفية) وطلبت قدحاً من (البيرة) ورحت ارقب المدعوين الوافدين ، الذين كان في طليعتهم كبار المعمرين (الكولون) هؤلاء الناس الذين يقامرون بحياة الشعبين الجزائري ـ والفرنسي ، ويجرون وراءهم حكوماتهم ومن خلفها الاستعمار الدولي ليفرضوا بالحديد والنار مصالحهم على الشعوب ، كما كان في مقدمتهم (رواد) البترول هؤلاء الناس الذين فتح لهم المعمرون ابواب الصحراء ، ليشركوهم في نهب خيرات الجزائر وليؤمنوا عن طريقهم ، دعم حكوماتهم لسياسة فرنسا الاستعمارية .

وكنت وانا ارقب حركات وسكنات الفريقين معاً ، الاحظ نظرات الود المصطنعة والبسمات المموهة التي يتبادلها المعمرون والرواد ، وهم يحيون بعضهم بعضا ويتحدثون الى بعضهم بعضا ، ولم تكن علاقتي بالمعمرين ولا بالرواد ، علاقة وثيقة مكينة ، كانت محدودة وضيقة ففي الوقت الذي كنت اشعر فيه باحتقار لمظاهر صلف المعمرين ، فأتحاشى مصافحة ايديهم الملوثة بالدماء ، وأحاديثهم المشحونة بالاجرام كنت في نفس الوقت اشعر بأنهم لا يرتاحون الى طلعتي كل الارتياح ، وان غبطة تمور في اعماقهم لاستعبادهم اياي ، لاستعباد هذا الالماني الذي وضعوه في خدمتهم ، اما رواد البترول فقـــد كانوا يتقربون الي ويتوددون ، وكنت الاحظ انهم يولوني من العناية اكثر من الفرنسيين انفسهم ، ولكنني كنت احس ان مصدر هذه العناية ليس هو (المانيتي) بل طبيعة مهمتي ، فانا في نظرهم واحد من الوف وملايين الناس الذين خلقوا ليموتوا من اجلهم .

فقد كان كل فريق يدرك في سره انه يستغل الآخر ، وانه يضمر له كرهاً مقيتاً ،وانه يحتقره ويزدريه ، فالمعمرون يؤملون من حكومات الرواد ، العون والمساعدة ، ليثبتوا اقدامهم في الجزائر ، مقابل الامتيازات التي يهبونها الى هؤلاء الرواد وحكومات الرواد ، تؤمل من وراء عون ومساعدة فرنسا ، اضعافها في حربها الاستعمارية لاحتلال مكانها في شمالي افريقيا ، وعلى هـــذا الاساس الاستثماري الاستغلالي تقوم علاقات الافريقيين ، ولكن على حساب من تقوم مثل هـذه العلاقات انها على حساب الشعب الجزائري .

في هذا الجو الذي غمرني بالتأملات وانا استعرض وجوه المدعوين انتبهت على صوت يناديني :

ــ هو كراول هو كراول .

والتفت الى مصدر الصوت ، كان منبعثا من احد رواد البترول الذين زاوروني اكثر من مرة في مكتبي لم يكن هذا الرائد وحيدا على مائدته القريبة مني ، كانت معه امرأة ، لم اعرفها اذ كان ظهرها في اتجاهي ، ولما التفت اليه ، وحياني ، دعاني الى مائدته .

لم ارتح في الواقع الى هذه الدعوة ، اذ كنت أوثر ان ان اقضي ليلتي في مكاني ، واستعرض واتأمل ، ولكن الرائد البترولي الح واسرف في الحاحه . فدلفت اليه ولما بسطت له يدي ، ووقعت عيني على المرأة التي تجلس الى مائدته ، شدهت

واضطربت ، لقد كانت هي ، هي بالذات غانيتي المجهولة ، اصل ضياعي .

اما هي ، فلم يضطرب لها جفن ولم يحل لها لون ، كانت على ثغرها ، تلوب ابتسامة ، ومن عينيها تطل نظرة صافية ، ومن وجهها يتدفق جمال اسطوري .

ورماني كما رماها الرائد بنظرة مستفهمة مستفسرة ، كان يوزع هذه النظرة الخاطفة بيني وبينها في ذهول وحيرة .

وكان الموقف حرجاً ، وحرجاً حقاً ، لم انج من مبادهته الا بصعوبة ، ولما اخذت مكاني من المائدة ، قدم الرائد الغانية الي : انها الآنسة روز ماري .

ومدت روز ماري يدها الي وصافحتني وهي ترمقني من وراء اهداب جفونها بنظرة باردة ، ولما مددت لها يدي كانت ثابتة مستقيمة ، كما لو ان وهـــلة المقابلة الاولى لم ترعني ، فقد زايلني هول المفاجأة ، بصورة سريعة غريبة ، اذ شعرت وأنا اصافح غانيتي ، بأني غريب عنهـــا لاعهد لي بها ولا معرفة ، وبكل بساطة شربت نخبها قدحي ، اما هي فقد ارتسمت على ملامحها مظاهر دلت دلالة واضحة ،على ما ساورها من عجب من جراء التبدل السريع الخاطف الذي عراني ، ولاح لي وانا ارمقها من زاوية عيني ، انها كانت تأمل في ان تشاهد فريستها، طريحة متهالكة متداعية لتشبع بذلك نهم الافتراس الوحشي، الكامن في اعماقها في سكون .

وكانت معركة خفية صامتة خلال احاديث المجاملة التي كنت اتبادلها مع الرائد البترولي وشعرت بان الهدأة التي رانت على اغضبتها واثارتها وانها تحاول الخلاص مني بعد ان خاب املها في ان تجدني ضحية ثائرة او فريسة عاجزة وكان ماشعرت به اذ انتصبت على قدميها بعد انتهاء رقصة (الفالس) ومدت الي يدها مودعة متمنية لي ليلة سعيدة حافلة وتبعها فارسها الرائد البترولي ، وبقيت في مكاني اتبعها النظر في رثاء مسكين .

لم تعد حريتي الشخصية مبتغاي فقد اصبح هواي في هذه الحياة الدنيا اسمى من الخاص انه العام الشامل انه هذا العالم المديد الرحب فقد طويت مأساتي لاحيا مأساة العـــالم مأساة الملايين من الناس الذين تحرق حياتهم قبضة من الافراد ولم اجعل من هذه المأساة مناحة بل جعلت منها ثورة ، ثورة على الالم ثورة على العامل الحقيقي الكامن وراء الألم على اولئك الذين أوجدوه ونثروه وان معني وجودي الخاص قد تلاشى في معنى الوجود العام .

وعندما شاهدت غانيتي المجهولة لم اشعر بنقمة ولابموجدة ولاحقد عليها ذلك لان فعلتها لم تعد شيئاخطيرابالنسبة لي شخصياً لقد كانت مجرد دمية تحرك من وراء الستار اما المسئول عن تلك الفعلة فهو ذلك الذي يجر كهاصحيح انني شدهت واضطربت لدن وقعت عيني عليها ولكن ماعراني لم يكن الاحدثا عابرا كان من الطبيعي جدا ان امنى به واصاب وماعلي الا ان اشكر هذه الغانية لانها في الواقع كانت سبب تحويل مجرى حياتي اذ جعلت مني انسانا يؤمن بالقيم الحقيقية للانسانية قيم الحب والخير والاخاء والسلام وان الانسان لم يخلق لاستثمار واستبعاد اخيه الانسان اذ لاشيء اعظم في هذا الوجود من هذاالانسان نفسه وان التعاون النقي الصافي هو الوسيلة الوحيدة لتطوير الحياة الانسانية من جميل الى اجمل ومن سام الى اسمى .

وقد لاقى سلوكي الحسن ارتياحا وقبولا من سادتي نعم من سادتي الذين وضعوا الاغلال في عنقي وعنق غيري من الناس اذ طابت لهم عبوديتي ووجدوا فيها مايرضي كبرياءهم المنتفخ ورأوا في قناعتي عزتهم وهواني مجدهم ، لم يجدوا في الانسان الذي يتمرد على قيمهم فاطمأنوا الي وارتاحوا فلماتقدمت بطلب منحي مأذونية اسبوع اقضيه في باريز هشوا لطلبي وحبوني مبتغاي وسافرت الى باريز .

هبطت باريز وليس في رأسي غير فكرة واحدة فكرة العودة الى مدينتي ولم يكن مجرد الحنين الى برلين هو باعث رغبة العودة الحقيقي في نفسي وانما كان الباعث الحقيقي لهذه العودة هو الرغبة في النضال دون الافكار التي بعثتني بعثاجديدا وحررتني من القيم والمفاهيم التي آمنت بها فيما مضى وبينما كنت اسير في شوارع باريز على غير هدى اذ بعيني تقع على لافتة جريدة (الايومانيته) فوقفت امام دارهاوبغتة شعرت بان قوة تدفعني الى دخول مبنى هذه الجريدة .

نسيب الاختيار

طبعت في

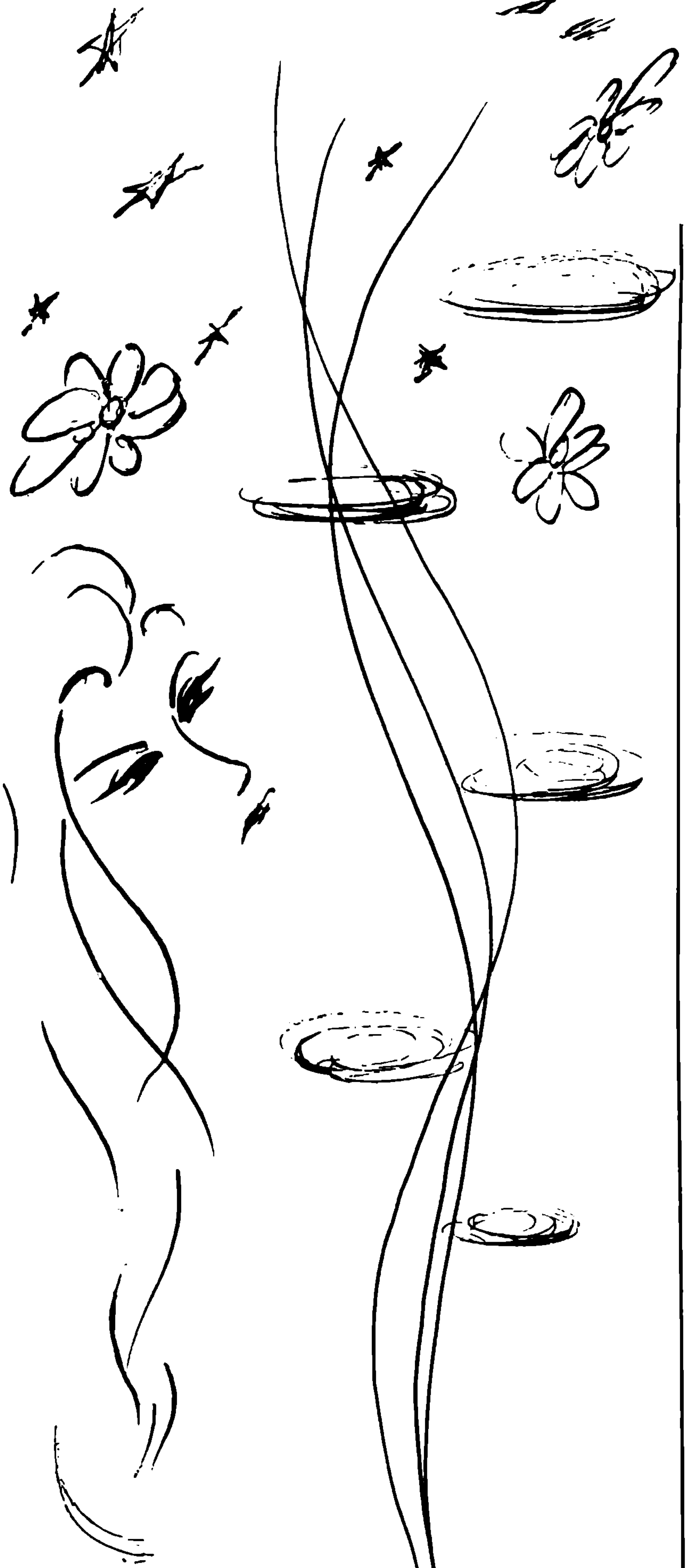
مطبعة الجمهورية

دمشق ـ بوابة الصالحية ـ بناية الحجار

هاتف ـ ٢٣٥٥٦

شؤون صغيرة

نزار قباني



شؤونٌ صغيرَةٌ ..
تمرُّ بها انتَ دون التفاتٍ ..
تساوي لديَّ حياتي
جميعَ حياتي
حوادثُ .. قد لا تثير اهتمامَكْ
أعمرُ منها قصورْ ..
وأحيا عليها شهورْ ..
وأُطعمُ منها خيالي الصغيرْ
وأَغزِلُ منها حكايا كثيرَهْ
والفَ سماءٍ .. وألفَ جزيرَهْ
شؤونٌ .
شؤونُكَ تلكَ الصغيرَهْ ..
.....
فحين تُدخّن .. أجثو أمامَكْ ..
كقطّتكَ الطيّبهْ ..
وكلّي أمانْ ..
ألاحق مزهوةً معجبَةْ ..
خيوطَ الدخانْ
توزّعها انتَ حول المكانْ
دوائرْ .. دوائرْ
وترحل في آخر الليل عني
كنجمٍ .. كطيبٍ مهاجرْ
وتتركني يا صديق حياتي
لرائحة التبغ والذكرياتِ ..
وأبقى أنا في صقيع انفرادي
وزادي انا .. كلّ زادي
حطام السجائرْ ..
وصحنٌ يضمّ رماداً ..
يضمّ رمادي ..
....

وحين اكونُ مريضَهْ
وتحمل ازهاركَ الغاليَه
صديقي ، اليْ ..
وتدفنُ بين يديكَ يديّ
يعودُ لي اللونُ والعافيَهْ
وتلصقُ الشمسُ في وجنتيْ
وأبكي ..
وأبكي ..
بغير ارادَهْ ..
وانتَ تردّ غطائي عليْ
وتجعل رأسيَ فوقَ الوسادَهْ ..
تمنيتُ كلّ التمني ..
صديقي ، لو انيّ
أظلُّ .. أظلُّ .. عليلَهْ
لتسأل عني ..
لتحمل لي كل يومٍ
وروداً جميلَهْ ..

....

وإنْ رنّ في بيتنا الهاتفُ
اليه أطير ..
أنا يا صديقي الاثيرْ
بفرحة طفل صغير
بشوق سنونوّةٍ شاردَهْ
وأحتضنُ الآلةَ الجامدَهْ
وأعصر أسلاكها الباردَهْ ..
ويصبح قلبيَ في أذنيْ ..
وأنتظر الصوتَ .. صوتكَ يهمي عليْ
دفيئاً .. مليئاً .. قوي
كصوت نبي ..
كصوت ارتطام النجوم
كصوت سقوط الحلي
وأبكي ..
لأنكَ فكرتَ فيْ ..

....

ويوم أنا يا صديقي القديمْ
أجيءُ .. وكلّي اضطرابْ ..
اليكَ .. لكي استعيرَ كتابْ
لأزعم اني اتيتُ لكي استعيرَ كتابْ
تمدّ أصابعكَ الشاحبهْ ..
الى المكتبَهْ ..
وأبقى أنا في ضباب الضبابْ
كأني سؤالٌ بغير جوابْ ..
أحدّق فيكَ .. وفي المكتبَهْ ..
كما تفعل القطّةُ الطيّبهْ ..
تراكَ اكتشفتَ ؟
تراكَ عرفتَ ؟..
بأنيَ جئتُ لغير الكتابْ
وانيَ لستُ سوى كاذبَهْ ..
وأمضي سريعاً الى مخدعي ..
أشدّ الكتابَ الى اضلعي ..
كأني حملتُ الوجود معي
وأشعلُ ضوئي ..
وأُسدِلُ حولي الستورْ
وأنبش بين السطور .. وتحت السطورْ ..
كأنيَ عصفورةٌ جائعهْ ..
تفتش عن كلمةٍ رائعهْ
وأعدو وراء الفواصل .. أعدو
وراء نقاطٍ تدورْ
ورأسي يدورْ
لعلكَ يا .. يا صديقي القديمْ
تركتَ باحدى الزوايا ..
عبارةَ حبٍّ قصيرهْ ..
جنينةَ شوقٍ صغيرَهْ
لعلك بين الصحائف خبأتَ احدى الهدايا ..
هداياكَ .. مهما تكنْ
يا صديقيَ .. أغلى الهدايا ..

....

وحين نكونُ معاً في الطريقْ
وتأخذ ، من غير قصدٍ ، ذراعي
أحسُّ أنا يا صديقْ
بشيء عميقْ
بشيء يشابه طعم الحريقْ
على مرفقي ..
وأرفعُ كفّي أنا للسماءْ
لتجعل دربي بغير انتهاءْ ..
وأبكي ..
وأبكي
بغير انقطاعِ ..
لكي يستمر ضياعي ..
لتبقى ذراعي ،
صديقي لديكْ ..
لتمنحها الدفء من راحتيكْ
.. وحين أعودُ المساءْ
الى حجرتي ..
وأنزع عن كتفيّ الرداءْ
أحسُّ .. وما أنتَ في غرفتي
بأن يدَيْكْ
تلفّان في رحمةٍ مرفقي ..
وأبقى لأمسح يا مُرْهقي ..
مكانَ اصابعك الدافئاتِ ..
على كُمّ فستانيَ الازرقِ ..
وأبكي ..
وأبكي ..
بغير انقطاعِ
كأن ذراعيَ ليستْ ذراعي ..

•

نزار قبّاني

« محمد ديب »

اديب الجزائر الكبير

بقلم

الدكتور ابراهيم الكيلاني

الأدب الجزائري أدب جديد ، ذو خصائص ذاتية مستمدة من البيئة التي يعيش فيها الشعب الجزائري ، فهو أدب قومي وان شارك الجزائريين فيه كتاب فرنسيون وأجانب ولدوا وعاشوا في افريقية الشمالية ، لأن أدب هؤلاء تجاوز في تصوراته وموضوعاته المحيط الافريقي الى آفاق تتصل بالأدب الاوربي والروح الاممية اكثر منه بالأدب العربي والروح العربية ، فهو أدب مصطنع مجلوب غريب ، في حين أن الأدب الجزائري الذي يكتبه ادباء جزائريون أدب واقعي فيه انعكاس لروح الشعب الجزائري في عواطفها وارتكاسها تجاه الوجود ، وأمانيها وأساطيرها وتقاليدها . فالأدبان منفصلان متميزان يصدران عن عالمين منفصلين متميزين : اللاتيني والعربي. ومن الغريب ، بل من سخرية الاقدار ان يجتمع هذان الادبان في نقطة مشتركة هي لغة التعبير ، فان الادب الجزائري الحديث يكاد يكون كله مكتوباً بالفرنسية لا بالعربية ، نعم ! بلغة فرنسية عالية لا تقل في نصاعتها وصفائها ورقيها عن لغة اكبر كتاب فرنسا المعاصرين . ومرد هذا الشذوذ الى الاوضاع التي خلقها الاستعمار الفرنسي في تلك البلاد منذ مائة وسبع وعشرين سنة فقد عمل الاستعمار عند احتلال الجزائر – التي فوجئت به ولم تكن قد أعدت له العدة واستكملت مؤهلاتها العلمية والقومية – اقول : ان الاستعمار عمل على القضاء على اللغة العربية واحلال الفرنسية مكانها تمهيداً لعملية الامتصاص ودمج الشعب الجزائري في الاكثرية الفرنسية وربط مقداراته بفرنسا مباشرة وبما ان الفرنسية هي لغة المستعمر القوي فقد ترتبت على ذلك امور وجد الجزائريون انفسهم ازاءها امام امرين : اما ان يتلقوا علماً بسيطاً محدوداً يعطي على الطريقة البدائية القديمة لا يوفر لصاحبه شيئاً من التقدم والمنافع والارتقاء في السلم الاجتماعي ، او علماً يدرس في مدارس منظمة ، حديثة توفر للطالب مزايا عقلية ومادية تساير التقدم والحضارة الحديثة . فاختاروا الثاني – ان كان ثمة اختيار – بل وصلت المأساة الى حد ان زهد الجزائريون على مر الزمن باللغة العربية ، واقبلوا بحكم الواقع الاستعماري على تعلم الفرنسية جاعلين منها لغة تعبير وتخاطب وثقافة وعلم . وهكذا فقد وجدت اللغة والثقافة الفرنسيتان مكاناً فارغاً في الجزائر فاحتلتاه ! وهذا لا يعني أنه لم يكن بين الجزائريين من يجيد اللغتين ويتذوق الثقافتين ، الا ان هؤلاء على قلتهم أصيبوا بما يصاب به كل متأرجح بين لغتين وثقافتين من تمزق في الشخصية الذي يؤدي – ان لم تسعفه الظروف والمواهب – الى العقم والجفاف ، لان احدى اللغتين كما يقول الجاحظ تأخذ من اخرى ، وتكون الغلبة في مراحل هذا الصراع للغة القوي الحاكم الذي عهد لها سبل التوغل والنمو والانتشار .

ويقيني أنه في اليوم الذي يتحرر فيه الجزائريون من محنتهم الاستعمارية ، فيتعلمون ويجيدون العربية ، فانهم سيكونون في طليعة الشعوب العربية المفكرة الواعية ، لان المادة الفكرية عند الفئة الممتازة منهم موجودة ، والاستعداد الذهني والنضج العقلي كائنان ، ولا ينقصهم الا اداة التعبير بلغة الضاد ، حتى اذا استكملوا هذه العدة ، وسدوا هذا النقص تكون قد انضمت الى الفكر العربي المعاصر عناصر حيوية جديدة تشد من ازره وتوسع من آفاقه ، بل اذهب بعيداً فان تجديد الادب العربي وبخاصة الروائي والقصصي منه سيكون على يد هذه الطليعة الجزائرية من الادباء والمفكرين .

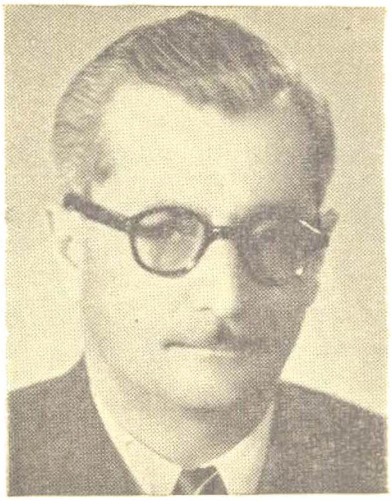
نحن الآن مع أديب جزائري كبير هو محمد ديب مؤلف رواية « البيت الكبير »

ولد في تلمسان في ٢١ تموز ١٩٢٠ ، وبعد أن درس في مسقط رأسه ثم في مدينة وجدة وزاول عدة مهن مكنته من الاتصال بالطبقات الشعبية الكادحة والاطلاع على نفسيات اهلها

واحوالهم المعاشية ، فقد عمل صانع سجاد ، ومحاسباً في محل تجاري ، ثم معلماً وصحفياً الى ان انقطع للأدب نهائياً فكانت باكورة أعماله الادبية رواية البيت الكبير ، وهي من اروع الروايات في تصوير الحياة الجزائرية في بؤسها وشقائهـا وتناحر ناسها وآمالهم وانسانيتهم وقساوتهم . وتجري حوادثها سنة ١٩٣٩ ومركزة حول البطل عمر وهو صبي دون البلوغ يعيش مع أمه الارملة « عاينة » في بيت كبير للأجرة تقطن غرفه أسر العمال الفقراء ، وهو اشبه بخلية النحل ، يتكدس افراد كل أسرة في غرفة واحدة ، وتسوده في النهار ضوضاء الاولاد وصراخهم ونداءات النساء ولغطهن وثرثرتهن وحركتهن المستمرة وفوق هذا فقد « احتجزت غرف الدار في الليل عدداً كبيراً من الاطفال ، حتى اذا طلع الصباح قذفت بهم الى صحن الدار في فوضى وضوضاء لامثيل لها ، فالاطفال ذوو اللعاب السائل ، والوجوه اللامعة من اثر المخاط يمرون واحداً واحداً وكان من لايستطيع منهم المشي يزحف رافعاً استه الى العلاء ، وكانوا يبكون ويزأرون جميعاً ، ولم تكن الامهات ولابقية النساء يرين فائدة في الاهتمام بالامر . »

ولم يقف المؤلف في تصوير حياة سكان الدار اليومية موقف المراقب والملاحظ الحيادي بل اشركنا من خلال الولد عمر (وعمر هو المؤلف في صغره) الذي يعيش مع أمه عاينة واختيه عيوشة ومريم في غرفة واحدة عيشة بؤس رهيب ، يسيطر عليهم شبح الجوع والحرمان واليأس من الغد ، حتى ان عاينة كانت تخاطب ابنها في ساعة من ساعات ضجرها وبرمها من العيش قائلة : « هذا كل ماتركه لنا ابوك الفاشل... الشقاء لقد غيب وجهه في الارض وانهالت علي جميع انواع البؤس فكانت نصيبي في حياتي كلها ، انه الآن هاديء في قبره ، ولم يفكر يوماً بادخار شيء من المال ، فلصقتم بي كما يلصق العلق ، لقد كنت سخيفة كان الاجدر بي ان اهجركم في الازقة ، وأفر الى احد الجبال الجرداء ! »

ولم يتعمد المؤلف في النواحي الاجتماعية النفسية التي يبدو على ضوئها اشخاص روايته طلب الاصلاح والتخفيف من آلام مواطنيه بل اكتفى ببسط لوحات متتابعة امام القاريء بلغ



من مهارته في تصويرها أنها ترسخ في الذهن حتى يصعب على المرء الخلاص منها ، فيشعر بعد الانتهاء من مطالعة الرواية بغثيان عاطفي ، مبهم ثائر ، يخالطه الاسى والاشفاق على هذا الشعب المعذب يخلف بعده شعوراً بالنقمة والسخط على الاستعمار والمستعمرين اصل هذا البلاء وسبب هذه الزوايا المحزنة .

والرواية على صغر حجمها تجمعت فيها صور ولوحات عن جميع المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والنفسية التي خلقتها الاوضاع الاستعمارية في الجزائر ، كمحاربة اللغة العربية التي هي سلاح القومية ، وعمليات التمثل الرامية الى ذوبان الشخصية الجزائرية في المحيط الفرنسي وسياسة الافقار والتجهيل ، كل هذا يؤديه محمد ديب في سطور قليلة بليغة ،دقيقة ، لانجد مثيلها الا عند كبار الروائيين . مثال على ذلك وصفه درس الاخلاق الذي يلقيه المعلم حسن على تلاميذه الصغار ، فقد سألهم مرة : ماهو الوطن ؟

فلم يفهم الصغار ماتعنيه هذه الكلمة الغريبة التي ظلت بعد السؤال « كأنها معلقة في الفضاء تتأرجح » فما كان من احد التلاميذ الراسبين الا ان رفع اصبعه مجيباً : ان فرنسا هي وطننا الام !

وكان الجواب وحده سبباً لسلسلة من التساؤلات في نفس الولد عمر يعالجها بعقليته البسيطة وغريزته العفوية ، فهو يعلم أن فرنسا عاصمتها باريز ، وأن هؤلاء الفرنسيين الذين يشاهدهم في المدينة يأتون من فرنسا ، وهم لذلك يركبون البحر في الغدو والرواح . فكيف يصح والحالة هذه تكون فرنسا أمه . وأمه هي عاينة وهي في البيت ، وليس له أمان اذن لقد اكتشف الكذبة ففرنسا ليست امه !

ولكن المعلم حسن لم يترك هذه الفرصة تمر دون ان يفهم تلاميذه في شيء من العناء والحرج ان الوطن هو ارض الآباء وهو البلد الذي استوطنه اهله منذ عدة اجيال . حتى اذا جاءه الاجانب ليحتلوه اصبح الوطن في خطر فهؤلاء الاجانب اعداء يجب على اهل البلاد ان ينتصبوا في وجوههم ليردوهم من حيث اتوا . ولو ادى هذا الى التضحية بحيواتهم جميعاً . وان الوطنيين هم الذين يحبون وطنهم ويعملون لخيره وصالحه .

وتجري حياة الولد عمر كغيرها من حيوات اشباهه من الاولاد المغمورين الهزيلين الحفاة العراة « ذوي الشفاه السوداء واعضاء العنكبوت والعيون المتوهجة بنار الحمى » يملأون ازقة الجزائر الضيقة ودروبها المظلمة لاهدف لهم في الحياة . ولا امل في العيش . الفوا الفقر وألفهم . ولصقوا بالشقاء ولصق بهم تمر بهم ايام يتضورون فيها جوعاً فلا تجد عاينة ام عمر « لاسكات هذا الجوع في احشاء بنيها بداً من المراوغة . فتعللهم بالقدر التي تغلي على النار وليس فيها سوى الماء كما كانت تفعل تماماً العجوز زمن عمر بن الخطاب فينام الاولاد » بعد ان اخرسهم الاعياء وارخى النوم بثقله الرصاصي اجفانهم » ناموا لان صبرهم في انتظار الطعام قد نفد ولان ابدانهم الهزيلة لم تعد تستطيع المقاومة طويلًا !

ان هذا الجوع الذي يتراءى في كل صفحة من صفحات الرواية هو ذاته الذي يجعل الام تصيح بلسان الشعب الجزائري: « نحن فقراء ! ولكن لماذا نحن فقراء ان امها لم تكن تجيبها على سؤا لها وقال بعضهم ان هذا مشيئة القدر وقال آخرون : ان الله وحده يعلم لماذا نحن فقراء ولكن هل هذا يكفي ، ولعل الاشخاص الكبار يعرفون الجواب !

وتثور مشاكل الواقع الجزائري الاليم من خلال المناضل الذي اسماه المؤلف حامد سراج ويظن انه محمد ديب بعد بلوغه العشرين ينطق باسمه ويعبر عن افكاره وآرائه الثورية تجاه مايعانيه الجزائريون من الظلم الاجتماعي . ان حامد سراج الذي لاحقه رجال الامن من مكان الى مكان . وفاجأوا البيت الكبير مرات للقبض عليه مروعين الاطفال والنساء هو نفسه الذي وقف خطيباً في العمال الزراعيين الذين جاؤوا من اقاصي تقذف الحي بروائح جيفية منتنة قوية عنيدة لاتستطيع ضربات الهواء ولاهبوط الحرارة في الليل تبديدها . »

ومن قوله في وصف بطله عمر النائم في فراشه : « وكان عمر لايفتأ عن التقلب في فراشه وقد استولى عليه الارق، وكانت ثيابه تزعجه وفي الهزيع بدأت الحكة تنتاب كل جسمه فكانت الاظافر تكشط طويلا البطن والاليتين والفخذين . وكان البق عندما تسيطر الظلمة ينساب من مخبئه متسللا الى فرش النائمين ومع ان الحيطان كانت مطلية بالكلس فكان يرى كثير منه وكانت الأم غانية تضيء الغرفة مراراً في الليل وتسحق عدداً منه وفي النهار كنت ترى خيوطاً سمراء طويلة تركتها الاصبع التي قعست البق على الحائط . »

وقوله في وصف قرية في اعلى الجبل : « يسكن القرويون في حفر في الجبل . الرجال والنساء والاطفال والحيوانات . وتقع مقبرة القرية فوق رؤوسهم على المرتفع وهكذا يسكن الاحياء تحت الاموات ! »

وقوله : « وكان ضوء المصباح الكهربائي الضعيف المجرد عن العاكس المعلق في السقف يثقب الليل ! »

تلك هي لمحة عن رواية البيت الكبير التي جعل منها محمد ديب رواية الجزائر القومية والتي حقق بها رسالة الأديب الذي يكشف عن الحقائق التي يعيش عليها الشعب الجزائري ولعل في اظهارها اثارة للطريق الثورية التي سلكتها الجزائر نحو الحرية والمجـــد ..

دمشق – ابراهيم الكيلاني

مثالية الوحدة

بقية مانشر على الصفحة « ٢ »

وان ثرواته منهوبة ، وان حريته محدودة ، وان غيره هو السيد في اجزاء كثيرة من ارضه . وانه لايشارك في المثل العليا الانسانية بأي جهد. وبالجملة . ان التناقض بين الوجود والطموح مفجع حقاً ، ومن واجبات هذه الوحدة ان تقفز اكبر القفزات في سبيل ازالة هذا التناقض . ولن يكون لها من قيمة الا اذا هي ادركت مهمتها هذه ، وعملت بوحيها .

وزبدة القول : ان وحدتنا نزوع مثالي . وليست بحكم عادي . ونحن بحاجة الى مفاهيم ثورية . لا الى الاصغاء لحكم الاوضاع الرجعية . ونحن مؤمنون أشد الايمان بأن نجاح وحدتنا الجديدة متوقف حتما على مدى ادراكها لطبيعتها الثورية التقدمية ، ولقيمتها الشعبية الاصيلة .

دمشق – حافظ الجمالي

التنسيق الجامعي في ظل الوحدة

بقلم

الدكتور حكمة هاشم

لما قامت الوحدة بين جزئي الجمهورية العربية المتحدة، التفتت الاذهان الى تنسيق المؤسسات المختلفة القائمة في كل من مصر والشام. والحق ان هذه الثورة الكبرى في الكيان السياسي لابد وان تستتبع في جميع الميادين عملا ضخماً في السجم والتوفيق والملاءمة.

والاوضاع العلمية - كالاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية - لاتخرج على هذا الحكم. فهي محتاجة الى رجع البصر من جديد في بنيتها وهيكلها، ومعلوم ان رأس هذه البنية وقمة هذا الهيكل ليس الا الجامعة، فكيف تظل في معزل عن ذلك الجهد الانشائي الجديد ؟

لا ريب لدينا اذن في ضرورة هذا التنسيق. ومن المسلم به ان هناك حاجة لاحكام الصلات بين اجهزة التعليم العالي في كل من الاقليمين وتمتين الروابط بين مقومات وحداتهما المتشاكلة، حتى يجيء عمل تلك الاجهزة باطيب ما يتصور له من نفع ومردود.

الا ان عملية التنسيق هذه عملية معقدة ودقيقة. ذلك بأن كلا مجموعتي مؤسساتنا العليا في شطري الجمهورية المتحدة قد ولد في جو خاص، وخضع في نشأته ونموه لعوامل تطورية متباينة، فجاء تركيبه العضوي مختلفاً بعضه عن بعض، وتفاوت عدد قدراته الوظيفية زيادة ونقصاً، فعاد من غير الهين ولا الميسور ان تلجأ الى معالجة التأليف والتكييف فيه، على الوجه الامثل، دون الحيطة الكبيرة. ولهذا نستأذن المعنيين بمثل هذا الشأن ان نتقدم اليهم ببعض الملاحظات التي نطمع ان تكون بناءة ومخلصة.

في اعتقادنا، اولا، ان التواصي بالانجاز السريع يجب ان يكافئه الخوف من البت المرتجل. نعم ان من حقنا ان نخشى الفتور وضياع الوقت. ولكن حرصنا على الوقت بالذات انما هو الذي يقتضي منا اطالة النظر عند وضع التصاميم ورسم المناهج. لقد اقتضى اصلاح التعليم في انكلترا الذي عرف باصلاح تشرشل (١٩٤٣) سنوات طويلة قبل انضاجه. واستلزم وضع مشروع (لانجفان فالون) الذي لما يطبق في فرنسا نحو عقد تام من الاعوام. وليس ذلك من باب التراخي ولا من باب اللهو ولكن مهمة التخطيط ولاسيما الجامعي منه مهمة متشعبة الفروع؛ وهي ذات علاقة بالتخطيط العام وبينها وبينه تداخل وثيق فقيام مؤسسة جامعية مثلا او اتساع هذه المؤسسة في جهة، وضمورها في جهة اخرى رهن بحاجات وبمقتضيات زمانية ومكانية تدرسها وتحددها اجهزة التخطيط العام. وما دامت هذه الحاجات والمقتضيات الزمانية والمكانية غير مدروسة ولا محدودة على وجه الضبط والتعيين، فان من العبث ان تتخذ قرارات سريعة حول انشاء مؤسسة جديدة اوتحويل في بنية مؤسسة قديمة. ولهذا قد يكون من المستحسن اتخاذ نهج في العمل من شأنه ان تتسلسل فيه القضايا التي هي موضوع التنسيق بحسب اولويتها من حيث الاستعجال الملح. وحينئذ لاينجز منها الا ما انضج انضاجاً سوياً. فأما التي لابد لها من ملابسات اخرى فخير ان يولد حلها ولادة طبيعية في اجله المناسب - ولو خيل الينا ان هذا الاجل طويل - من ان تأتي هذه الولادة بطريق الجراحة القيصرية !

وفي اعتقادنا، ثانياً، ان التنسيق ليس معناه الصب في القوالب الواحدة. بل التشكيل والتلوين خير من الاطراد في وحدانية الصورة. وهذا ما يجري في كليات العالم وجامعاته، لانستثني منه غرباً ولا شرقاً. فكم من مادة تدرس هنا على هيئة وهنالك على هيئة، وكم من منبر يصطبغ هاهنا بصبغة وهاهنا بصبغة، بل كم من صفوف وفصول متعادلة المضمون ولكنها برغم توازيها تشتمل على المتعارضات اكثر من اشتمالها على النظائر والاشباه ! زد على ذلك ان للكليات وللمعاهد الجامعية عندنا اوضاعا تمليها ضرورات الواقع، ومن الحكمة الا تقوم فجوة سحيقة بين هذا الواقع والمثل الاعلى. فافتتاح الاقسام وفرض المقررات والمواد، ورسم الخطط والمناهج واساليب الفحوص، وتصريف البحث العلمي وانشاء الملاكات التدريسية كل اولئك مرتبط بجملة من الاعتبارات الواقعية لا يجوز اسقاطها من حساب الحاسب دون الوقوع في خطأ كبير.

واذا ما شئت ان اصور هذه الحال بمثل مجسد، اتخذت بعض مجريات العمل في جامعاتنا المتناظرة. هناك مواد لا يزال يجري تدريسها باللغات الاجنبية رغم نزعة النصوص - والنفوس -

الى ان تكون العربية من حيث الاصل لغة العلم والتعليم في كافة فروعه. ولقد كنت ولا ازال كالكثير من اخواننا ـ من المؤمنين بأن لساننا يتسع لضروب المعرفة بحذافيرها. ولكن لن يبلغ بي هذا الايمان الراسخ حد الزعم ان بالاستطاعة بين عشية وضحاها تعميم هذا الاسلوب على جامعات الاقليمين على السواء بضربة من عصاً سحرية. فلا بد من ان ندع التطور التدريجي ومعارضة التجارب بعضها ببعض يقودان الى منحى في هذا الباب يصل بنا الى الغرض دون تناسي امكانياتنا ولا التفريط بمقوماتنا. ومثل هذا يقال في كثير من السنن والاعراف والنظم الاخرى التي تلائم أو لا تلائم بحسب الحال والظرف والمقام.

وفي اعتقادنا، ثالثاً، ان التنسيق يجب الا يكون وحيد الطرف، بل يفرض الاخذ، على وجه، الحياد، بالحسنات انى وجدت. وفي جميع الاحوال ينبغي الا تتعارض هذه الفكرة وتقاليد الاستقلال والحرية الجامعيين. ومن المعلوم ان هذه التقاليد انما قامت وتوطدت على اثر تموجات طويلة وسعي متصل مديد. ومن مقتضى هذه التقاليد ان هناك سلطات جامعية تسودها علاقات معينة تربط بين اجزائها وتعتمد هذه العلاقات على مبدئي التنازل الطوعي والحكم الذاتي في الادارة والتنهيج والتوجيه والتدبير فمن العدل والنصفة والقيام بالقسط ان يضمن لهذه السلطات التمتع بتبعاتها الكاملة وان تولى الثقة الموفورة للاضطلاع بأعبائها على الوجه الرشيد. يضاف الى هذا ضرورة التوسع في اللامركزية التي لاحظنا وجودها في «لوائح» الاقليم الجنوبي، وهي من المكاسب المفيدة الخليقة بالاقتباس لدى مباشرة التنسيق.

وفي اعتقادنا رابعاً ان التنسيق يجب ان يتناول شؤون البحث العلمي وهي ناحية مهما نقل في تقصيرنا عنها، فنحن في ذلك مقصرون وليس من غضاضة علينا ان نعترف بهذه الحقيقة وان تعليمنا العالي لا يستحق هذا النعت الا اذا خرج نهائياً عن حظيرة التقرير والتلقين والاملاء واستحفاظ ما في بطون الكتب ان هذه الامور جميعاً عدة «ضرورية»، ولكنها «غير كافية» كما يقول اصحاب المنطق والثقافة لا تجد معناها الكامل الا في القدرة على البحث العلمي دفعاً بالمعرفة الموضوعية الى الامام فمن الواجب والحالة هذه ان تدرس الاساليب والطرق الآيلة الى توكيد فكر التحري والبحث واذا علمنا ان فكر التحري هذا لا يضمن له التفتح والازدهار في الميدان الفردي المحصور وأنه لابد من وضعه على الصعيد الجماعي ادركنا ضرورة تنسيق الجهود في سبيل ترابط ميادين البحوث وتضافرها في جامعاتنا العربية.

ثم ان في اعتقادنا اخيرا ان التنسيق يجب الا يقتصر على الاشكال بل ان يتناول الكنه واللباب فليس يكفي ان يقتصر الجهد على نظام تعادل بين المواد والبرامج والشهادات والامتحانات والرتب والمراتب وما اليها. لأن المعول على الجوهر لا على المظهر والوحدة قضية روح قبل كل شيء ولعل هذا هو الامر الفريد الذي ارى أن يتخذ فيه التنسيق شكل «توحيد» كامل فان همنا يجب ان ينصرف في الدرجة الاولى الى اختراع الاساليب المؤدية لاشاعة روح جامعية حقة مطبوعة بصفات القومية الواعية والانسانية البصيرة، روح تؤمن بالعلم الايجابي وبكرامة العقل وتؤثر التسامح وتنبذ العصبيات وتقدس الخلق المتين وترتفع بالشخصية الى مرتبة الاصالة روح ترقى بها ثقافتها الى معارج الانسانية السامية فارضة مسؤوليتها على نفسها تجاه قومها مشاركة في تراث البشرية جمعاء مساهمة فيه بالاخذ والعطاء والتفاعل والاغناء روح غير سلبية ولا منكمشة ولا مستأثرة ولا ضيقة الأفق روح كريمة جريئة حرة وثابة طموح همها غزو المجهول ودك حصون الخرافة والثورة على الباطل لا مستغنية عن العمل بالحلم ولا قانعة بالعمل دون التفكير والنظر، روح خيرة زكية خلاقة ائتلقت بالنور لأنها من روح الله.

عام جديد

شعر

علي الحلي

تحية للثورة العربية في الجزائر
في عامها البطولي الرابع.

وُيطل عامُ الثورة الحمراء ، يرعف من جديدْ
أيامُه الألفاء اعصارُ الذرى ، وعلى الصعيدْ
أعراسُ ملحمة الصمود
عامٌ من الدم ، لادموع العاثرينْ
في كل لمحٍ من خطـــاهُ ترى بطولات . وطِيبَةْ
ورؤىً من الاشراق تسفحها البشائرْ
تستلهم الانسانَ في هون العبيد
من كل حُر في الجزائر
متوّشح بالموت في درب المجازر
يقظان ، يعصف باللهيب وبالحديد
عامٌ جديد
يحبو على المهج الطليلة والصديد
وجبال أوراس الحبيبة
سبحاتُ أشلاءٍ تريبة
تحيا مع الغادين تنبض من دماء الثائرين

* * *

عام جديد
يلظى فتشرب من مجامره السكينةْ
وتعلُّ منه النارُ انفاس القرارْ
يقتات من دم أمهات الأبرياء
من جوع اطفال الجزائر
من غربة المتشردين لدى المتاهات الكئيبة
من كل احزان اليتامى البائسين
من غـصّة المتعذبين بسوط اعداء الحياة
من شهقة الحبلى تسحُّ دم الجنين
من كل اطمار الخيام ، وكل كوخٍ في البوار
من كل أنقاض القرى العزلاء ، من طَلَل المدينة

* * *

عامٌ جديد
يحمر منه الأفق ، يغرق في مداهْ
رعشاتهُ الغضبى أعاصير الفداء
معصوبةٌ بدم الشهيد ! .
في كل ملتحمٍ تشم الموتَ ، في مرعى المجازر
بالأمس ودّعنا « جميلة »
في درب قافلة البطولة ...
الهامةُ السمحاءُ قنديلٌ يضيءُ دجى المغاور
والجثةُ الملقاةُ تسبح بالدم المحرور ، يشخب من لظاه
بالأمس في درب البطولة
« الطيّب الزلاّق »عفّره الجبابرةُ الطغاة
بالمصرع المدموم ضمٌ مع الندى الحاني .. صليبهُ !!
و « الطاهرُ » المغوارُ فوق الارض يمنحها طيوبَهْ
وعلى ظلال الافق ينتفض الخلود !

* *

عامٌ جديد ...
ينسلُّ من كهف العصور على الجزائر
يستلُّ منها النورَ ، يزرع في المدى الرعب الحزين
والموتَ . والحرمانَ . والعقم البليد
وسجونُ « وهرانَ » الرهيبة
اقسى من الاشباح في ليل المقابر
تلتز بالمتساقطين على المقاصل في إباء
وتعجُّ بالسجناء ، تلمع من نوافذها الخصيبة
من كوّة الصرعى على سفح البيادر
أنقاض ليل الوحش في مرعى العبيد ..
وخلودَ فجر « البعث » في دنيا العروبة !..

جميلة بوعزة فتاة عربية من الجزائر حكمت بالاعـدام من قبل الطغاة الفرنسيين ... والطيب الزلاق والطاهر النجاري من قادة جيش التحرير التونسي وقد اعدما رميا بالرصاص في احدى ساحات تونس العامة فالتحقا بقافلة الشهداء العرب الخالدين

قديم...

لأبي الشيص الخزاعي

وقفَ الهوى بي حَيثُ أنتِ فليس َلي ۝ متأخرٌ عنه وَلا متقدمُ
أجِدُ الملامةَ في هواكِ لذيذة ۝ حباً لذكركِ فليلمني اللوّمُ
أشبهتِ أعدائي فصرْتُ أحبهمْ ۝ اذ كانَ حظي منكِ حظي منهمُ
وأهنتني فأهنتُ نفسي صاغراً ۝ ما من يهونْ عليكِ ممنْ اكرمُ

لأبي بكر عبد الله بقي

عاطيتهُ والليل يسحبُ ذيلهُ ۝ صهباءَ كالمسكِ العتيقِ لناشقِ
وضممتهُ ضمّ الكميِّ لسيفهِ ۝ وذؤابتاهُ حمائلٌ في عاتقي
حتى إذا مالتْ به سِنة الكرى ۝ زحزحتهُ شيئاً وكأن معانقي
باعدتهُ عنْ أضلعٍ تشتاقهُ ۝ كيْ لا ينامَ على وسادٍ خافقِ

لاحدهم :

لما أناخوا قبيل الصبحِ عِيسهمُ ۝ وحملوها وَسارَتْ بالدمى الابل
وقلبَّتْ من خلال السجفِ ناظرها ۝ ترنوا اليّ ودَمعُ العينِ ينهملُ
ووَدعتْ ببنان رأسه عنمٌ ۝ ناديتُ لاحملتْ رجلاكَ يا جملُ
إني على العهدِ لمْ أنقضْ مودتَهمْ ۝ يا ليت شِعري بطولِ العهدِ ما فعلوا

...وجديد

فلسفة الحياة

لايليا ابي ماضي

أيهــذا الشاكي وما بكَ داء   كيف تغدو اذا غدوتَ عليلا

إن شر الجناةِ في الارض نفس   تتوقى قبل الرحيل الرحيــلا

وترى الشوك في الورود ، وتعمى   أن ترى فوقها الندى اكليــلا

هو عبء على الحيــاة ثقيل   من يظن الحيــاة عبئاً ثقيــلا

والذي نفســه بغير جمــالٍ   لا يرى في الوجود شيئاً جميلا

ليس أشقى ممن يرى العيش مراً   ويظن اللذات فيــه فضولا

أحكم الناس في الحيــاة أناسٌ   عللوها فأحسنوا التعليــلا

فتمتعْ بالصبح ما دمت فيــه   لا تخف أن يزولَ حتى يزولا

واذا ما أظل رأســك همٌ   قصر البحث فيه كيلا يطولا

أدركتْ كنهها طيور الروابي   فمن العار أن تظل جهولا

ما تراها ـ والحقل ملك سواها ـ   اتخذت فيه مسرحاً ومقيــلا

تتغنى ، والصقر قد ملك الجو   عليها ، والصائدون السبيلا

تتغنى ، وقد رأت بعضها يؤ   خذ حياً والبعض يقضي قتيلا

تتغنى ، وعمرها بعض عــام   أفتبكي وقــد تعيش طويلا ؟

فهي فوق الغصون في الفجر تتلو   سور الوجــد والهوى ترتيلا

وهي طوراً على الثرى واقعات   تلقط الحب أو تجر الذيولا

كلما امسك الغصون ســكون   صفقت للغصون حتى تميــلا

فــاذا ذهّبَ الاصيل الروابي   وقفت فوقها تناجي الأصيــلا

فاطلب اللهو مثلما تطلب الأطـ   يار عند الهجير ظــلا ظليلا

وتعلمّ حب الطبيعــة منها   واترك القال للورى والقيلا

فالذي يتقي العــواذل يلقى   كل حين في كل شخص عذولا

« فتحي محمد »

شهاب خبا

يطالعك ، وانت داخل الى دار الكتب الوطنية في صدر البهو ، الفيلسوف العربي ابو العلاء المعري بوجهه المجدور وعينيه الغائرتين ووقفته الصابرة الممعنة النافذة الى اعماق النفس البشرية.. فلا تملك ، ازاء هذا التمثال ، الا ان تبارك اليد والمطرقة والازميل .

انه من ابداع الفنان فتحي محمد .

وللتمثال قصة ..

فعندما تنادى رجال الفكر في البلاد العربية الى اقامة احتفال كبير في حلب صيف العام ١٩٤٤ بمناسبة مرور الف عام على ولادة حكيم المعرة ، هبّ فتى مغمور في حي شعبي من احياء حلب يسمى «المشارقة» ينحت تمثالا للشاعر العبقري ، وكان لا يجد المكان الذي يترضّى فيه آلهة الفن والابداع ، الا ان جاراً كريماً اسلمه مفتاح دكان له مهجورة بجوار البيت يتخذ منها «استديو» الى حين .



صنع بيد زميلته (روبيرتا) ، محفوظ في اكاديمية روما للفنون الجميلة العليا

وانفرد الفتى في الدكان شهرين يساهر ازميله الغض . وكان يلقى من صبيان الحي عنتاً كلما اطلوا عليه في معزله فرأوه يقيم بين يديه شيئا على هيئة الانسان . وكانوا في بعض المرات يحصبونه ويلتوون هاربين . انه يتمادى ويخلق بشراً ، ألن يطالب غدا في الاخرة بان ينفخ فيه الروح وما هو بقادر ؟!

واستوى التمثال ابداعاً رائقا من فتى ما لقن الفن ولا درس اصوله في المعاهد . وكذلك فقد قدر لابي العلاء ان يحضر « ألفيته » منصتا الى الخطباء يتعاقبون مقدرين انسانيته وشاعريته وحكمته بعد مأي من السنين .

وما كتم رجال الفكر ، يومذاك ، اعجابهم بالتمثال وبصانعه وتوسموا فيه الخير (١).

على ان الفتى الموهوب مالبث ان شد الرحال الى القاهرة يدرس في «معهد الفنون العليا» بعد ان باع اسهما له في احدى الشركات ورهن الغرفة التي كان قد ورثها عن امه .

وعاد بعد حين ، ليعهد اليه في عمل تمثال للفقيد سعد الله الجابري . فاظهر براعة حفزت بلدية حلب على رعايته وتبنيه ، فاوفدته في العام ١٩٤٨ في بعثة الى ايطاليا ، حيث دخل « اكاديمية الفنون الجميلة » يدرس فن النحت ثلاث سنوات فلما اتمها ثنى بدراسة فن صب المعادن لسنتين اخريين ، درس خلالهما ايضا فن الرسم وفن « الميدايون » في « معهد صب النقود » في روما . وعاد الى الوطن في العام ١٩٥٣ موظفا في الدائرة الفنية ببلدية حلب .

البقية على الصفحة «٤٥»

(١) كان ممن ابدى اعجابه : الدكتور طه حسين ، والاستاذ خليل مردم بك ، والمرحوم احمد امين .

أشياء ... ليس لها ثمن

قصة بقلم

عادل أبو شنب

اخترقت السوق دون ان أحس بالناس والحركة .

كان الثوب الابيض مضطجعاً على ذراعي كجثة ، خمدت فيها الروح منذ لحظات ، وكنت قد خلفت ورائي غرفة صغيرة تصفر فيها الريح ، وامرأة صبية قد احمرت عيناها من الدموع ، ومعدة فارغة لم تستقبل طعاماً قط ، منذ يومين .

قيل لي منذ مدة طويلة ، شهرين أو أكثر :

ـ اذهب الى سوق النسوان .

ولم أكن لأظن قط بأنني سآلف هذا السوق مع الزمن ، وان زيارتي له ستتكرر بهذا القدر . كنت أحسب أن أزمة صغيرة قد حلت بي ، وان الايام القادمة القريبة ، ستظهر لي وجهها الربيعي الفاتن ، فتورق الاغصان الجافة وتزهر ، وتشبع المعدتان اللتان تمضغان في الليل اسى ، وفي كثير من الاحيان وعداً غامضاً لاأدري من ابن ورثته ، بأن الفرج قريب ، ولكن الايام لم تضحك لي قط ، فلم تورق الاغصان ، وظلت قدما الشتاء عالقتين بأرض غرفتي ، بقلبي وبقلب زوجتي ، وظللت امد يدي ، بين حين وآخر ، الى اشيائنا العزيزة علينا ، احملها كمن يحمل جثث اصدقاء له ماتوا ، واذهب بها الى هذا السوق الذي يلتهم كل شيء ، لايرد ميتاً على الاطلاق ، وانما يدفع فيه ثمناً بخساً ، قد يشبع المعد الفارغة الى حين .

ولم انتبه الى مافي السوق من حركة مألوفة فيه ، فقد كان الثوب الذي أحمل .. اعز الاشياء الى قلب الصبية التي تعيش في قسمات وجهها مآس متلاحقة ، تتضخم شيئاً فشيئاً ، ثم تخرج ثورة من الدموع . لقد ذهلت اذ رأتني اتناول ثوب زفافها الابيض كالفل ، وراحت تتابع يدي ، وأنا اطويه ، في فزع مقبض ، وخيل الي ان ذكريات زواجنا الممتعة قد وثبت فجأة الى عينيها ، كما وثبت الى عيني ، وانها تخاف ان تمحي هكذا الى الابد صلاتها بالماضي السعيد ، وان تضيع في زحمة الذكريات البائسة التي باتت تطاردنا . لقد عاصر هذا الثوب ايام متعتنا ، وقت كنت أعمل ، وظل عزاءنا زمناً طويلاً : سنة ، سنتين ، فهل سيختفي هو ايضاً كالاشياء الاخرى الاثيرة ، ويضيع كما يضيع صوت حنجرة كفت عن الغناء فجأة؟ وراحت تبكي : ارسلت دموعاً غزيرة دون ان تقول شيئاً ، فقد اعتادت أن تسكت كلما سلبت حاجة من حاجاتها ولم انبس ، انا بدوري ، بكلمة عزاء واحدة ، سكت ، ورحت أرمق القسمات المكفهرة من الحسرة ، ثم نزلت متخاذلا .. أحمل على ذراعي الجثة البيضاء كالفل ، وفي صدري رغبة مكبوتة بأن أصيح في وجه هذه القوة المجهولة التي تمنع عنا اللقمة والادام ، وتحاربنا في اعز مانملك ، في ذكرياتنا الحلوة ، تميتها ، وتغيبها في اعماق النسيان .

كانت الملابس المدلاة أمام المحال في السوق . . تصطدم بوجهي ، وتحمل الى انفي رائحة قدم ونفتلين ، ولست ادري لماذا شعرت وقتئذ بشيء من الخوف والتردد ، لقد خيل الي أنني اتجول في مقبرة ، وأن كل هذه الاشياء والملابس المعروضة امام عيني .. تخص أناساً من لحم ودم ، مثلي ومثل زوجتي ، استعملوها والبسوها مدداً مختلفة من الزمن ، حتى أصبحت عزيزة عليهم ، قطعة من حياتهم وذكرياتهم ، ثم انتزعت منهم لسبب من الاسباب ، وبيعت في هذا السوق الذي يبتلع الذكريات ، وصار أصحابها القدامى أمواتاً في نظر أصحابها الجدد ، وحدثت نفسي بأن اعود : أرد الى المسكينة التي تبكي ثوب زفافها الابيض ، واجلس ماداً يدي نحو السماء .

كان سوق النسوان مزدحماً كالعادة ، والناس يروحون ويجيئون كأنما لا أهداف لهم ، وكان الجو ثقيل الوطأة ، كئيباً ، وعلى الوجوه حزن مشترك ، غامض ، شارك في تضخيمه الواح صدئة من التوتياء ، وضعت في سقف السوق فصيرته مظلماً ، تضيئه في غير ما انتظام حزم ضوء هاربة من الشمس ، تنفذ عبر كوى احدثها تتابع الأيام ، وتشق لنفسها في العتمة دروبا ملأى بذرات الغبار ، على أن الناس لم يعبأوا كالعادة ، بكل هذا ، وانما كانوا ينقلون اقدامهم بين المحال المتخومة حتى منافذها بالاشياء والملابس القديمة ، أو بين النسوة المحجبات وقد جلسن على الارض ، ووضعن أمامهن أكواماً من القمصان والاثواب والكنزات العتيقة ، يبعن ويشترين ، وأحياناً يتسلين بالخناق مع بعضهن على زبون يتيم ، يزور السوق في يوم كساد .

وفتحت عيون السماسرة والمخمنين الشبيهة بعيون البوم

احداقها ، وراحت تلاحق الثوب الممدد على ذراعي ، تعاينه في حذق ، وحاول سمسار متحذلق ان يستدرجني الى دكان عميل له ، فصددته وتابعت مسيري الى اعمـــاق السوق حيث تغوص الاشيـــاء العزيزة في احشاء حوانيت كبيرة كأفواه التماسيح .

ووقفت أمام احد المحال التي اعتدت أن امونها بالاشياء التي ابيعها ، وقدمت لصاحبه ابي محمد الثوب الابيض المطرز بخيوط فضية تشكل في الذيل مجموعة أزهار وعصافير، وتعطي الثوب بهاء وجمالا نادرين ، وسألته :

ــ هل جاءت المرأة حسب الموعد يا ابا محمد ؟

كنت ، وقتئذ ، اعاني من حسرة صغيرة ، شبيهة بتأنيب الضمير ، فرشت ظلا مقيتاً على الموقف كله ، وجعلتني انتفض امام البائع ، فلقد خيل الي انني ابيع ذكريات سعيـــدة .. مقابل حفنة من الليرات ، سأشتري بها اياماً اخرى من ايام الشبع التي باتت عزيزة المنال ، ومع انوجهي قداكتسى بذل تلك اللحظة الا ان الرجل لم يبد عليه انه لاحظ شيئاً ، كان يعاين الثوب بعيني صقر مدرب ، ويهمهم كلما اكتشف فيه ميزة جديدة .

وقال لي منحياً اعجابه :

ــ ان تأتي قبل بضع دقائق اخرى ، استرح .

وقرب فمه من وجهي ، وقال بلهجة تاجر خبير :

ــ هل تعرف ؟ الثوب جميل وجديد ، وحرام ان يباع .

وهززت رأسي في أسىً، ولم اجبه ، وحين لمس فيّ هذا الزهد بالكلام ، قال بلا مقدمات :

ــ سآخذ خمسة بالمئة كالعادة !

● ●

مر وقت ليس بالقصير ، قبل أن تأتي هذه المرأة الـــتي حدثني عنها ابو محمد. لقد كانت تريد ان توفر لابنتهـــا عرساً مطنطناً ، تحسدها عليه بنات الحارة ، وكانت امنيتها الكبرى أن ترى ابنتها في ثوب العرس الابيض الطويل الذيل ، تتبختر بين المدعوات .. كأميرة في أبهى ماتكون ، الا أن ضـآلة المهر وضيق ذات اليد ، لم يمكناهـا من شراء الثوب المطلوب الغالي الثمن ، فارتأت ان تشتري ثوبـــاً مستعملاً من سوق النسوان ، ولجأت الى أبي محمد ، ليتصيد لهـا واحـداً رخيصاً وجيداً وابن ناس .

عندما رأيت المرأة .. مسح حزني احساس مرض بأنني سأتحرر ، مادامت قد جاءت ، من وطأة هذا الموقف المعقد الذي يثيره فيّ اضطجاع الثوب هكذا على ارض الدكان .. منتظراً ان يباع كأية سلعة اخرى ، وهو الذي يحمل آلاف الذكريات الصغيرة الجميلة ، وانني سأحمل الى البيت مالاًوشبعاً موقتاً ، وشيئاً من الاسى المر ، تتبادله عيناي وعينا زوجتي ، فترة ، ثم تنساه العيون الاربع ، وتمضي الى الاهتمام بشقائها اليومي المألوف .

وراحت المرأة تتحسس الثوب في اعجاب واضح ، كانت اساريرها تتهلل بشراً حقيقياً ، ولقد خيل الي انها على اشـــد ما تكون ، الآن ، شوقاً ، الى رؤية ابنتهـا عروساً ، تزف بالثوب الطويل الذيل ، كما تمنت دائماً .. حين قالت :

ــ كأنه فصل من اجل سعاد .

وملأ وجهها بشر جديد ، ولست ادري لماذا انتقلت الي عدوى الفرح فجأة ، انا السابح في بحيرة حزن قاتمة ، فاذا بي اشاركها حبورها هذا ، كأنني لاأحمل على كتفي مأساة المرأة التي احب ، والتي خلفتها في البيت تبكي الثوب نفسه .

وقالت المرأة :

ــ كم الثمن ياأبا محمد ؟ انت تعرف حالي. قل كلمة واحدة.

ونظر ابو محمد الي ، وقال :

ــ مئة ليرة ، ياببلاش !

قالت المرأة ، وقد غشيتهـــا ، بسرعة ، مسحة اسف ظاهرة :

ــ غال هكذا ياابا محمد . الله وحـده يعلم كيف دبرت المبلغ ..

وحين هممت بالتدخل ، حدجني ابو محمد بنظرة ، ذكرني فيها بجهلي .. بقواعد المبيع والشراء ، وقال :

ــ الثوب جيد كما ترين . والمئة ليرة .. مبلـــغ صغير ، ولولا حاجة الأخ لما باعه بألف ليرة . انت تعلمين كم هو عزيز على المرأة ثوب زفافها !

وقالت :

ــ هذا ما يجعلني اتحمس لشرائه . البنت يتيمة الأب ، مالها احد غير الله وغيري . وقد آلمني ياأبا محمد ان يتم فرحها دون ان تقتني ثوب تول ابيض ، وتظهر به امام الناس مثل كل خلق الله من البنات اللواتي يتزوجن ، ولكن .. يظهر انه ليس لها نصيب .

كانت المرأة تتكلم برنة اخلاص ، ولقد تهيأت لدي قناعة كبيرة بأنها لم تكن تكذب ، وان مأســـاة من نوع آخر ، ستعيش في قسمات صبية صغيرة مقبلة على الحياه .. ان لم تقتن ثوباً من التول ، ابيض ، تتبختر به امام المدعوات .. وهن يغنين لها فرحات :

ــ اتمختري ياحلوة يازينة .

وقدرت اي حزن بالغ ، يعتصر افئدة الجميع ، وقتئذ ، واي عرس مثقل بالأسى سيكون .

وسألها ابو محمد :

ــ النهاية ؟ كم ليرة تدفعين في هذا الثوب الجديد ؟

قالت :

ــ خمسين وليس لدي غيرهـــا .

فقال ابو محمد :

ــ ما نزال بعيدين ياست !

وبدا وجه المرأة ، في تلك اللحظة ، كاسفاً .. مليئاً بالخيبة وكانت عيناها تحدقان في الثوب في لوعة ، كأنهـا تستنكر ، منذ الآن ، ان يكون على جسد غير جسد ابنتها العروس التي ستزف بعد يومين . ولم تدر ماتقول ، لقد بدت عاجزة عن ان تخرج كلمة اخرى ، ستمضي الآن الى البيت ، وسيظل الثوب ملقى كجثة ، وستزف الصبية بلا ثوب زفاف ابيض طويل الذيل ، ولن تطوف بها المدعوات مغنيات :

ــ اتمختري ياحلوة يازينة ..

ولمحت بريقاً في عينها ، وخيل الي انها تبكي .

وخلفتنا ، فجأة ، في صمت مفجع ، ومشت .

ولسبب غامض ، لا ادركه الآن ، بدوت حريصــاً على ان يكون الثوب لهذه الفتاة القابعـــة الآن في المنزل تنتظر ذراعي امها ، وهما تحملان لها الثوب الأبيض: شعار حياتهـــا الجديدة الحلوة . لم اكن .. تحت تأثير شفقـة عابرة قط ، وانما كنت عرضة ، طوال ثوان ، لهجوم شعور حزين غـير محدود ، خيم على صدري وراح يجعلني اتصور كيف تكون حال الام العائدة الآن الى البيت بذراعين فارغتـــين ، وحال الصبية التي تريد ان تبدأ حياتها الجديدة بلا عقبات .

وصرخت بالمرأة :

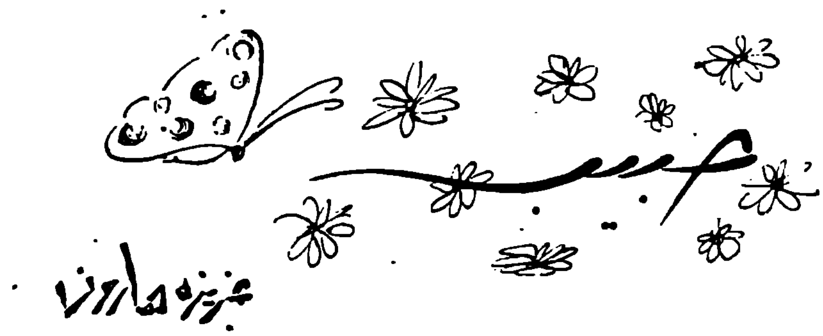
ــ تعالي ..

ودفعت الثوب في وجهها ، دون آن اقول كلمة واحدة.

كانت عيناها مليئتين بالدموع ، وجاء اشراق وجهها المفاجىء فصير المشهد جميلا ، اخاذا ، اشبه مايكون بصحو أطل بعد ليلة ممطرة .

وفي حين كان الثوب يرقص على ذراعي المرأة ، كنت انا في طريقي الى البيت ، أحمل للمرأة الباكية التي تنتظرني مالاً وشبعاً وشيئاً من الاسى المر ، وحـــكاية جديدة عن ثوب زفاف ابيض من التول ، ذي ذيل طويل مطرز بخيوط فضيـة تشكل مجموعة ازهار وعصافير حلوة ، ذهب ليعيش عهـــداً جديداً ، ولينسج لاثنين شابين متحابين ، فتى وفتاة ، ذكريات اخرى ، جديدة ومفرحة .

دمشق ـ عادل أبو شنب



بين الدروب عرفت دربك ياحبيبي
فتبسم الحزن الجنون بمهجتي وزهت ندوبي
بك ياحبيب أعيش ناعمة واهزأ بالخطوب
واذا خشيت من الغيوب غمرت بالنعمى غيوبي

★ ★ ★

بك ياحبيب أعيش كالاطفال في العمر النضير
الحب يرفعني الى جو الملائكة الطهور
ويرف في آهاتي النشوى بالحان السرور
ويظل طيفك في دجاي أشعة القمر المنير

★ ★ ★

بك ياحبيب أعيش وادعة أرنم أغنياتي
وأكاد أنسى انني ذقت المرارة في حياتي
واحس بالامن الرغيد وبالرضى عن كل آت
واهيم نشوى في ضمير النور المح وهج ذاتي

عزيزة هارون

زاوية

يحررها
سعد صائب

دعوا الازهار تتفتح

اعتاد نقادنا – على جهل او تجاهل – وصم نتاجنا الفكري والادبي المعاصر بخلوه من الاصالة والابداع ، وبعده عن التجديد .. وحجتهم في ذلك ان مفكرينا وادباءنا لم يبلغوا في ثقافتهم وتجاربهم « المستوى » الانساني الذي بلغه مفكرو الغرب وادباؤه . وان نفوسهم – لضعف شخصياتهم – لم تستقطب نفوس جماهيرهم ، ولهذا لم يستطيعوا فرض وجودهم على قرائهم اسوة بمفكري الغرب وادبائه .

ذلك هو مجمل راي « نقادنا » في نتاجنا ومفكرينا وادبائنا ارادوا به تغطية فشلهم في تقييم هذا النتاج ، وعجزهم في تقدير جهد مبدعيه ، وادراك الظرف الذي يضطربون فيه . ولئن دل هذا الرأي المرتجل على شيء ، فانما يدل على عقم فهمهم « التطور الحضاري » الذي تجتازه امتنا ، والذي ما برحت تؤرجحها فيه رياح المستعمرين ، ويكاد قيظها يلفحها . كما يدل دلالة واضحة على انهم لم يتبينوا بعد الصراع العنيف الذي اخذ به ادباؤنا ومفكرونا انفسهم في سبيل تقوية الروح النضالية البناءة في امتنا ، وايجاد الوعي القومي المتفتح بين افرادها ، وتجنيد اقلامهم الحرة الشريفة للحيلولة دون تردي افراد امتهم في « الاتجاهات » و « المبادىء » الدخيلة التي يحاول المستعمرون جاهدين بذرها في ارضنا الطيبة البكر ، خدمة لاغراضهم ومصالحهم واطماعهم ..

ويقيني ان ادباءنا ومفكرينا يحيون اليوم مع امتهم تجربة التطور ، ويتفاعلون معه ، وقد برزوا في الطليعة ، يرسمون لها خطة هذا السير الحضاري في شقيه « المادي الخاص بالحالة الاقتصادية ، والنظام الذي يلائمها ، والفكري الخاص بالآراء والمعتقدات والقيم الخلقية والمعنوية المتولدة من التطور المادي » وهم انما يؤدون بذلك دورهم في العطاء ..

العطاء الفكري والادبي السمح الذي بدأ يتضح في الخلق والابتكار ، ويظهر في الحركة والتنوع ، ليقيم لحياتنا الجديدة دعائم راسخة قوية تقوم على تغيير الحالة الاقتصادية التي تمر بها ، وخلق النظام السوي الذي يلائمها ، وطبعها بطابع عربي اصيل .

ان النتاج الفكري والادبي المبدع – ايها النقاد الاصدقاء – لا يتكون تقليدياً ، فهو كالتربية يفقد بالتقليد ذاته كما يقول الفيلسوف التربوي « جون ديوي » ولكنه يسعى الى ابراز هذه الذات بروزاً طبيعياً ، وهذا البروز لا يأتي طفرة والا فقد قيمته ، واضاع فاعليته ؛ والقاعدة التي تتأكد في ظروف قلقة حائرة كظروفنا ، ان يستوثق نقادنا من سر نمو نتاجنا ، وان يخففوا من غلوائهم وتجنيهم ، والا يرموا هذا النتاج الوليد بالعقم والضحالة ، وان يتحسسوا احساساً مباشراً بهذا الايمان الذي نلمس حرارته الملتهبة والذي اخذ يملأ صدور مفكرينا وادبائنا وعقولهم ، وتلك لعمري علامة من اصدق علامات الاصالة والتجديد ، وظاهرة من اوضح الظاهرات التي تنبىء عن بلوغ « المستوى » الانساني الذي ننشده ..

ايها النقاد الاصدقاء .

دعوا الازهار تتفتح ..

سعد صائب

قضية الفن المجرد

بقلم
صدقي اسماعيل

اصبحت قضية الفن المجرد من اهم المشاكل الثقافية التي يتناولها التفكير الاوروبي ؛ ولم تعد قضية فنية بحتة يعني بها نقاد الفن والباحثون المختصون ، بل تعدت حدود فن التصوير والنحت وفتحت آفاقاً جديدة للبحث في طبيعة الفنون بصورة عامة ، وعلاقتها بالحياة الانسانية ، ويحاول كثير من الباحثين ان يحملها طابعاً فلسفياً يتناول مصير الانسان المعاصر ومعنى وجوده .

وقد كان المعرض الذي اقيم اخيراً في العواصم الاوروبية لرسوم الفنان الروسي كاندينسكي مثاراً لهذه الابحاث: والمعروف ان كاندينسكي هو من اقوى رواد الفن المجرد ، وقد الف كتاباً عام ١٨ بعنوان « ماهو روحي في الفن » دعا فيه الى التخلي عن الاساليب المألوفة في فن التصوير ، باعتبارها تجعل الفنان أسيراً للموضوع الذي يرسمه ، وتفقده اثمن مافي الهامه الفني : التعبير عن مشاعره . ويرى الفنان الروسي ان التحرر من الواقع هو عودة الى اعماق النفس الانسانية تتيح للفنان تصوير الموسيقى الداخلية التي هي وحدها الينبوع الخصب لكل روعة وجمال ؛ ومن ثم فان غاية الفنان في نظر كاندينسكي هي التأليف المجرد بين الخطوط والألوان ، للتعبير عن هذه الموسيقى دون الارتباط بأي شكل خارجي يشير الى الواقع المشخص .

وقد اعتبرت دعوة كاندينسكي في البدء بدعة غير مألوفة في فن التصوير ، وهاجمه النقاد في قسوة ورأوا فيه داعية الى اقصاء الفن عن الحياة واعتبار الابداع الفني غاية لذاته . غير ان الفنانين الذين التفوا حوله منذ مطلع هذا القرن كانوا على جانب كبير من العبقرية والابداع اتاح لهم وضع جذور راسخة للفن الجديد وكان منهم الالماني بول كلي والتشيكي كوبكا والبولوني مالفيتش والهولندي موندريان والفرنسي ديلوني والاميركي مارك توبي ويتفق هؤلاء جميعاً مع مريديهم الكثيرين على اسس واضحة للتجريد في الفن تقوم على العناصر التالية :

١ً - الغاء الموضوع المشخص من اللوحة .

٢ً - التعبير عن الاحساسات الصافية مجردة من كل فكرة .

٣ً - التأليف بين الالوان أو الخطوط بصورة تحقق الجمال .

٤ً - اعتبار الغاية الاساسية من التصوير بعث الغبطة الفنية .

٥ً - العودة بالفن الى مظاهره الابتدائية المتمثلة في النقوش والزخارف الشعبية .

وقد ظهرت حديثاً دراسات عديدة حول التجريد في الفن فنشر الناقد الفني ميشيل سوفور قاموساً للتصوير المجرد شرح في مقدمته مبادىء التجريد واعتبر الفن الجديد أقوى معبر عن نزعة الانسان المعاصر الى تحقيق حريته الداخلية بالمتعة الحسية المجردة التي يعتبرها السبيل الوحيد لازاحة ذلك الهم الثقيل الذي تبعثه في حياة العصر المضطربة تساؤلات العقل ..

ونشر الكاتب مارسيل بريون كتاباً تحليلياً عن « الفن المجرد » تناول فيه تجارب الفنانين التجريديين . فاعتبر كاندينسكي ممثلاً لاعمق تجربة روحية في هذا العصر الذي اثقلته متاعب الصناعة والنفعية . وقال عن بول كلي « انه ايماءة حارة الى الصفاء الذي يكمن في اعماق الوجود « المحض .. » واعتبر كوبكا باعثاً للتجربة الهندية العريقة التي ينشد بها الانسان الاندماج في الحقيقة الكونية الشاملة .

واصدر « روبير راي » كتاباً أسماه « ضد الفن المجرد » هاجم فيه هذه النزعة الغريبة في التعبير الفني ؛ ورأى فيها انحرافاً عن الفن الصحيح الذي يتمثل في الوضوح وفي التعبير عن الجمال الحي الذي يعيش في واقع الحياة . وتبدو في كتاب « راي » نزعة دينية واضحة ، فهو يتنصل من الدعوة الى « الفن الاجتماعي » الذي تعتبره الماركسية هدفاً لكل انتاج بديعي ، ويرى ان بدعة التجريد تفقد الانسان ايمانه .. ويلاحظ ان كتاب « راي » خال من الدراسة الموضوعية ، وتحامله على

الفن المجرد يقـــوم على العاطفة اكثر مما يعتمد على المناقشة الهادئة .. وبهذه الروح نشر الكاتب مارسيل زاهار كتاباً بعنوان « الفوضى في الفن المعاصر » ..

ونشر الكاتب جوليان بريزبوس دراسة عن « بولونيا الاشتراكية والفن المجرد » في مجلة « العصور الحديثة » التي يصدرها جان بول سارتر ، حلل فيه طبيعة الفن المجرد واشار الى تاريخه في بولونيا ، وقد بين اصالة هذا الاتجاه الفني ومدى مايقدمه من خدمة عميقة لجماهير الشعب . وقال ان الفن المجرد قد بدأ في النقوش الشعبية على الجدران والاواني والثياب ، وان التجريد لايعني الابتعاد عن الحياة ، بل هو محاولة جريئة لجعل الآثار الفنية في متناول الجماهير الشعبية التي تؤخذ بالجمال والصفاء قبـــل كل شيء آخر . وذكر ان الشعب يعجب بالزخارف مثلاً ويتأثر بها اكثر مما يتذوق اللوحات الكلاسيكية « المترفة » ولذلك فان الفن المجرد يمكنه ان يكون فناً اشتراكياً شعبياً بكل مافي الكلمة من معنى . ويشير الكاتب ايضاً الى فهم اليوغوسلافيين لهذه الحقيقة وتشجيعهم للفن المجرد ، مناقضين بذلك وجهة نظر الاتحاد السوفياتي الذي مايزال يعتبر التجريد في الفن منافياً للتربية الاشتراكية . ويعزز الكاتب رأيه بكلمة للينين يقول فيها : « ان اقوى الفنون هي اكثرها انتشاراً في القاعدة الشعبية . »

والواقع ان قضية الفن المجرد هي على جانب كبير من الاهمية بالنسبة لنا ، نحن العرب بصورة خاصة . فقد عرف التجريد في الفن ، كثيراً من مراحل الازدهار في الحضارة العربية ، ولا يزال تاريخ الفن الحديث يخضع لتأثير الخطوط العربية التي انتقلت الى الحضارة الاوروبية عن الاندلس والقيروان . واعتبرت منذ « فان غوخ » رمزاً لرشاقة الحركة وصفائها واشارة الى « غير المتناهي » في الحياة ..

المنهج والاساليب
في الانتاج الثقافي

كتب « فلاديمير دنيبروف » في مجلة الأدب السوفياتي (العدد ٣ – ١٩٥٨) مقالا مسهباً بعنوان « المنهج والاساليب » تناول فيه مشكلة هامة طال حولها الحديث في المجتمعات الاشتراكية بصورة خاصه ، هي مشكلة التوجيه والحرية في الادب والفن . وقد فند في البدء وجهة نظر الداعين الى « التعايش السلمي » بين المناهج المختلفة ، فلاحظ ان مبررات هذه الدعوة هي الحرص على الاصالة الفردية في الانتاج ، وتحريره من سيطرة الطابع الواحد الذي يتنافى مع الابداع الشخصي فالمنهج الواحد بالنسبة لاصحاب هذه الدعوة هو طغيان بعض التقاليد التي تؤدي الى عرقلة التجديد في معظم الاحيان .

وخطأ هذا الرأي يرجـــع في نظر « دنيبروف » الى الالتباس بين المنهج والاسلوب فالمنهج هو طريقة عامة تفرضها قضية المجتمع على جميع الكتاب والفنانين الذين يريدون ان يكونوا على صلة وثيقة بالحياة صلة يتعذر من دونها أي ابداع . أما الاسلوب فهو خاص بكل فنان فهناك منهج واحد واساليب متعددة. فالواقعية مثلاً هي منهج تجمعت حوله اساليب لاتحصى ، فقد كان تولوستوي وديستويفسكي واقعيين على الرغم من ان كلا منهما كان يتبع اسلوباً خاصاً به . ومن الخطأ ان تعتبر الواقعية اسلوباً عاما لان ذلك يجعلها ضيقة الحدود . وبذلك يقول الكاتب المسرحي المعروف « بريخت » : « عندما نرى مدى التنوع الذي يمكن ان يتجلى في وصف الواقع ، فاننا نقتنع بان الواقعية ليست امراً متعلقا بالشكل ولايمكن ان تكون اسلوبا واحدا . ولكي نعرف مافي الواقعية من قوة يجب ان نقارنها بالواقع الذي تصفه وليس بالاسلوب المتبع في وصفه . »

واذا كانت الواقعية اتجاها أو منهجا يفسح المجال لتنوع الاساليب فكيف نبرر المناهج الاخرى كالرومانتيكية مثلاً أو الكلاسيكية أو سواها ؟ ويرى دينبروف في هذا المجال ان المنهج الواقعي قد فرض نفسه في الحياة المعاصرة لانه اقوى المناهج ابداعا واكثرها ارتباطا بالحياة فالواقعية تغني تجارب الفنان وتساعد على تفتح شخصيته وهي ليست منهجا مفروضا على الادباء والفنانين بل هي الطريقة الوحيدة التي تتيح لهم ان يجددوا اساليبهم ويعبروا عن شخصياتهم في حرية وقوة . ذلك ان الواقعية هي طريقة الاشتراكية ، ومن اهم اهداف الاشتراكية – كما يقول كارل ماركس – تحقيق النمو في الشخصية ، ولا يعني ذلك تقوية الفردية عند النخبة من الكتاب والمثقفين بل تحقيق التقدم الفكري للمجتمع بأسره فليست مناهج الثقافة من صنع الافراد بل هي تجارب اشترك فيها ملايين البشر وجعلوها على هذا النحو من غنى الالوان وخصب الاساليب .

ان المعنى الواسع الذي يعطيه « دنيبروف » للواقعية في في هذا المقال ، يمكن ان يثير تساؤلات كثيرة . فاذا كانت الواقعية اتجاها عاماً يتحتم على الكتاب اتباعه لأنه يحفظ اساليبهم الخاصة ، ويتيح لهم شتى انواع التعبير ، فان مشكلة التوجيه في

الانتاج تبدو دخيلة الى ابعد حد . لأن المنهج الواقعي لا يمكن ان يكون حافزاً على الابداع الا بمقدار ما يتيح للادباء والفنانين من الحرية . وليس المنهج الواحد هو الذي يحقق هذه الحرية ، بل تجربة الاديب او الفنان . فتوماس مان مثلا وسومرست موم وغراهام غرين هم كتاب واقعيون بكل معنى الكلمة ، ولكنهم في الوقت نفسه فرديون يصورون الواقع باساليب بارعة من خلال تجارب بورجوازية بعيدة عن القضية الجماهيرية والروح العلمية اللتين تقوم عليها الواقعية الاشتراكية . فما هي مقاييس المنهج الواقعي ؟ . الحقيقة ان المنهج لا يستطيع ان يخلق فنانين مبدعين ، وان كان من الشروط الهامة في الابداع الفني المعاصر . فليست الواقعية الاشتراكية هي التي خلقت غوركي واهرنبورغ وتيخونوف ، وشولوخوف ، بل هم الذين وضعوا دعائمها الأولى . ان تجربة الفنان واسلوبه هما نقطة البداية في كل انتاج فني فذ ، وبمقدار ما يتميز به الفنان من الموهبة والقوة ، فانه يستطيع ان يستجيب – في المنهج الذي يتبعه للقضية الانسانية كما يحياها العدد الاكبر من الناس . . .

تلك هي على الاقل المشكلة الاولى للانتاج الادبي والفني في الوطن العربي ..

في الأدب العاري

لم يعد الأسلوب العاري في تناول الحياة، والوصف الدقيق لما فيها من فجوات ومظاهر قائمة مشكلة في الأدب الغربي الحديث. فقدأصبحت تعرية الانسان ، والجرأة في وصف الحياة بجميع جوانبها من تقاليد هذا الأدب. وما كان يسمى ادباً اسود منذ سنوات ، أو أدب الانحطاط لأنه يتحدث عن كل شيء باسم الحقيقة والصدق ، اصبح طابعاً عاماً في اسلوب معظم الكتاب الغربيين ، واصبح القارىء الغربي يألف جرأة الادباء في هذا المجال ولو بلغت حد الصراحة الوقحة التي لم يألفها القراء العرب بعد ، على الرغم من ان الانتاج الأدبي الحديث في البلاد العربية ، اصبح يحمل شيئاً من هذه الصراحة ولا سيا في قصص الحب أو ادب اليوميات الذي يعبر عن القلق والتشاؤم .

وعلى الرغم من ان هذه الظاهرة ترجع في الأدب الغربي الى القرن التاسع عشر ، فان هناك صفحات عارية تعزى الى شكسبير وغوته وبليك . غير ان مشكلة الأدب العاري بدأت بالضجة التي احدثها غوستاف فلوبير في قصة مدام بوفاري ، واشعار بودلير ، وقد تعرض الاثنان لمحاكمة قضائية في هذا السبيل . ثم اثيرت المشكلة بصورة اعنف عندما اورد جيمس جويس كلمات بذيئة في مؤلفاته وتحدث في صراحة غريبة عن الحياة ، وعندما صورت قصة ، عشيق الليدي شاترلي لدافيد هربرت لورانس ، ومنعت في انكلترا للسبب نفسه . ثم ظهرت يوميات اندره جيد ومؤلفات الكاتب الاميركي هنري ميلر فراضت القراء على تقبل مثل هذه الاساليب ، ومن ثم لم تجد قصص جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار والبرتو مورافيا وغيرهم من الكتاب المعاصرين ، اي استنكار على الرغم من انها تجاوزت كل حد في تعرية الحياة الانسانية .

والواقع ان النزعة التحليلية في الادب هي التي مهدت السبيل . وعلى الرغم من ان ديستويفسكي هو الذي وضع اسسها ، فانه لم يلجأ الى الاسلوب العاري الذي يتبعه الكتاب المعاصرون الا في صفحات قليلة يذكر منها الملحق الذي اضافه الى روايته الكبرى « الشياطين » باسم ، اعترافات ستافروغين. غير ان الكاتب الذي فتح الباب على مصراعيه في هذا المجال هو ، مارسيل بروست ، الذي استطاع بموهبته الفنية وبراعته الفذة ، ان يرغم القارىء على اعتبار هذا المنحى في الكتابة هو المنحى الضروري لكل تعمق في فهم النفس الانسانية .

والحقيقة ان تقبل القارىء الغربي لهذا النوع من الأدب يرجع الى صفة بارزة في تكوين العقلية الغربية في هذا العصر ، هي الروح العلمية ، وهي الدعامة التي تقوم عليها الحضارة الغربية بصورة عامة . وقد وجد الكتاب الغربيون مبررا لاتباع هذا الاتجاه في الحرص على كشف الواقع الانساني كما هو واضافة حقائق جديدة الى المعرفة البشرية . ولذلك يبدو هذا الادب الغربي المعاصر ، ولاسيا في فرنسا ، مجرداً من القيم الاخلاقية مثلاً ، في سبيل قيمة كبرى هي الحقيقة والصدق ..

فما هي قيمة هذا النوع من الادب بالنسبة للعرب اليوم ؟.

الواقع ان المجتمع العربي ما يزال بعيداً عن تمثل مثل هذا الاتجاه في الادب ، على الرغم من تطلع العرب الى الصراحة والحقيقة في شتى مشاكل حياتهم . ويرجع ذلك الى الطابع الاخلاقي الذي يطبع العقلية العربية بصورة عامة ؛ فليس المهم ، بالنسبة للعرب اليوم ، ان يعرفوا كل شيء ؛ بل ان المعرفة والحقيقة في الحياة العربية المعاصرة ترتبطان بالعمل والسلوك . فالعربي يتساءل ابداً امام الحقيقة ، بماذا اؤمن ؟ وماذا اعمل ؟

وعلى هذا النحو تبدو مثلاً روايات سارتر بعيدة عن القارىء

البقية على الصفحة «٣٦»

العناقيد الستة وزهرة التفاح

الى الام العربية .. التي تصنع المعجزات

قصة بقلم

فاضل السباعي

كانت شمس الربيع تغمر الشرفة الصباحية . وكانت «ام الشوق» تقتعد اريكة في صدر الشرفة ، وهي تتسلى بحياكة قبعة ربيعية من الصوف الابيض لاحد احفادها الصغار . وكانت لا تفتأ تستعيد في خاطرها سعادة البارحة !..

كان في الحق يوما مشهودا . لقد كرّموها عندما بدأت تجني ثمراتها الخيرة : كن ستة عناقيد ، وتفاحة بوجنتين صفراء وحمراء !

— ليتك معي ، يا « ابو شوقي » ! مـــا اهون النصر بعد ضياع الاحباب !..

لقد تركها في منتصف الطريق على فجأة ، ومضى لا يلوي.

ـ آه ...

زفرة حرّى اطلقتها ام الشوق . ثم رمت بالابرتين والقبعة البيضاء الى جانب ، وسرحت ببصرها في فضاء المدينة . كانت المآذن السامقة تتزلف الى القلعة الشامخة تدين لها بالطاعة والولاء. اصبحت اليوم كهذه القلعة ، تتزلف اليها الاقـــدار وتمنحها وتسخو بالعطاء . ولكن ابو شوقي مضى قبل ان يشاركها فرحة النصر !

ومسحت دمعة سقطت على خدها . ولفتت رأسها الى وراء حيث « شوقي » في غرفتـــه يذاكر . وهتفت :

ـ الحمد لله على كل حال .

* * *

عندما تركها زوجها ، من عشرين عاما ، لم تكن « التفاحة » قد ازهرت كانت بزرة في عالم الغيب . وكان مقدرا لها ان تكون « عنقودا » كالعناقيد الستة السالفة .

مضى عنها وفي قلبه اشواق .. اشواق الى الابن يكحل به عينيه ويحمل عنه عبء الحياة عندما ينوء كاهله بعبء الحياة.

« الصبي » ... رجاء كان يرسله الاب قبل ان تزهر ثمرة جديدة . « الصبي ! اريد صبيا يشد في ازري ... » . ولكن يبدو ان الصبي كان يأبى ان يطل الى الدنيا في حضرة ابيه . فآثر الاب ان يمضي الى غايته على شوق ، ليتيح للصبي ان يميط عن نفسه حجب الغيب ، فينعم بالحيـاة والنور ومحبة اخواته اللائي بلغ عددهن الست !

كانت « رشيدة » ، كبراهن ، بنت اثنتي عشرة .. ومن دونها «سلمى» و « عائشة » و «علية» و « سهام » و «عروبة» بين الواحدة والاخرى سنتان اثنتان . وجلست الاخوات الست ، في تلك الليلة القصية ، يترقبن في لهفتهن البريئة ما تسفر عنه الاقدار . كان الاب قد مضى ، قبل ثلاثة اسابيع ، ايثاراً لاطلالة الصبي من عالمه الضيق الى هذا العالم الفسيح . وقد اطل الصبي . اشرق كزهرة برية ناضرة في ارض مقفرة . وانطلقت الاخوات الست يعولن باكيات فرحا وحسرة على الاب الذي مضى وفي قلبه الشوق لمرأى الصبي ..

وسمي الصبي « شوقي » .

وجعلت تفد اليها التهاني :

ــ مبروك ، يا « ام شوقي » .. ها قد رزقت صبيا يعيش ويربى بدلالك .. مبروك ، يا « ام شوقي » ...

نعم . انها ام « الشوق » ، بل ام الاشواق تستعر في قلبها لمرأى طلعته البهية ! واين الأب يكحل به عينيه ؟

كان يهيمن عليها ، مابين مضي الاب واطلالة الوليد ، شعور المترقب على شوق المترصد في قلق مستسلم . أيكون الوليد بنتا ، ام صبيا ؟ فلما اطل الصبي ، هيمن الهم على قلبها وروحها وكيانهـا جميعا : هم الحياة! من ذا الذي يرعى الصغار: العناقيد الستة وزهرة التفاح المشرقة ؟ من يطعم ويكسو ويؤوي ؟

كان عليها ان تعمل . فالرجل الذي مضى لم يخلف مـالا ، سوى حشاشة من معاش جعلت تتقاضاه من حيث كان قد عمل سنين . بات عليها ان تكد لتهيىء للبنات الحياة الكريمة .

عملت خياطة في بيتها . جعلت نساء الحي يقبلن اليها بأثواب صغارهن . فتخيطها في صمت لقاء اجر متواضع . كان الاجر مع المعاش يسدان الرمـــق في اول الامر . كانت البنات صغيرات . رشيدة في اول صفوف الثانوي ، وسلمى وعائشة وعلية في الابتدائي . الدراسة مجانية ، والكتب ، يمنحنها من المدرسة بلا مقابل . ولكن البنات كن مجدات ، متفوقات دائماً . وقد علمتهن الخياطة ، فكانت اسرعهن الى تلقن اصولها عائشة ، البنت الثالثة . كانت متفننة ، الا انها كانت تقصر عن اخواتها في مضمار الدراسة .

ولم تكن بها حاجة الى ان تحجب ايهن في البيت تساعدها في عملها . فقد كن يقبلن الى مساعدتها راغبات اوقات الفراغ ،

فيوفرن عليها بعض العناء ويحققن للأسرة مزيدا من ربح . وكانت الاجور ترتفع لتحسن الانتاج كلما مضت الايام . كانت تخيط ثياب الصغار ، فارتقت الى الخياطة للكبار ، الثياب والمعاطف ، وساعدها الايمن في ذلك عائشة ، الفنانة الماهرة ، وقد انفصلت عن دراستها بعدان اصابت حظا من العلم . وكانت دائمة التنقيب في المكتبات عن مجلات الازياء المستحدثة لتفصل على وفق نماذجها ، فتبرع في كسب ثقة الزبائن واستجلابهن .

وتخرجت رشيدة معلمة في المدارس الابتدائية .. في حين توظفت سلمى في مصرف كبير .. وظلت عائشة الجناح المحلق لامها .. اما علية ، فقد نجحت في مسابقة اهلتها لتلقي العلم في الجامعة ، لتغدو بعدئذ مدرسة علوم .. بينما رغبت سهام في الجمع بين الوظيفة ودراسة الحقوق .. ومالت عروبة الى دراسة الطب .. وشوقي اليوم في الصف الاول من كلية الهندسة ...

وعندما اقبل النصيب ، تزوجت رشيدة من مدير مدرسة ولها منه اليوم اطفال اربعة .. وتزوجت سلمى من زميل لها في المصرف ووضعت له طفلين .. اما عائشة ، الخياطة الماهرة ، فقد خطبت من بيتها وزفت الى تاجر طيب ولها منه اليوم خمسة صبية كالاقمار .. وعلية ، مدرسة العلوم ، مخطوبة لزميل لها في الكلية ، الا ان مايحزن امها انها ستترك البلد بعد شهور الى خطيبها تزف اليه وتقيم بعيدة . وسهام ، المحامية المتمرنة ، خطبت مؤخراً لقاض شاب طيب .

عناقيد العنب طاب شهدها وعذب رحيقها .

– آه ، يا ابو شوقي ! ليتك تستظل بكرمتك التي نصبت عريشها بيديك الخيرتين ، الكرمة ايعنت ، وانها تسخو بالعطاء ، فاين العين ترى ؟

واحسست ام الشوق ، وهي على الاريكة في شرفتها المشمسة ، بدمعة حزينة تترقرق في مآقيها .

سقت عناقيدها دمع العين ، سهرت الليالي تفصل وتجرب وتخيط ، صنعت بنات طيبات ، قدمت للوطن امهات ينسلن زغب الطيور تنطلق الى السماء محومة مغردة ، تفانت في تربية بناتها ، فسموها اما مثلى !

الحق ، انها لم تكن تدرك انها ستكون كذلك ، ولا خطر على بالها ان ثمة مايسمى « بعيد الام » . كانت تتفانى في السهر على بناتها حرصا على تأمين مستقبـــل لهن اكثر امنا وسعادة ، وكانت بناتها مجدات في دراستهن ، كانت البنت تدرس في النهار ، وتساعدها في الخياطة في بعض ساعات من الليل .

مسكينات بناتها الثلاث الكبريات ، لم يتح لهن ان يدخلن الجامعة ، ورشيدة ، البكر ، اكثرهن اسفا لذلك ، عندما حصلت على الكفاءة ، كان عليها ان تربح الاسرة نفقاتها المدرسية اولا ، ثم ان تغل هي للاسرة ربحا ، فكان ان دخلت دار المعلمات ، وتخرجت بعـــد حين ، لتعليم الصغيرات في الابتدائي . فاحتملت بذلك عبئها في قيادة الركب ، ركب الاخوات الصغريات . اما سلمى فقد فضلت ان تتوظف في المصرف . كانت الاسرة بحاجة الى دخل اكبر فالنفقات قد زادت . البنات اصبحن صبايا . ملابس وزينة ومظهر خارجي ملائم يجب ان يتوفر وعائشة ؟ عائشة مالت الى الخياطة . كانت اقلهن جميعا حظا من العلم . ولكن اينسى دورها الكبير في اثراء الأسرة بالدخل الوفير ؟

الكبريات مهدن السبيل للصغريات فسلكنه علية وسهام وعروبة مطمئنات . كانت الاشواك التي تدمي قد امحت ابرها من فرط الوخز ، واستحالت الى زهور وورود ورياحين فسرن به في ثبات واطمئنان فكان ان وصلن الى الجامعـة وتوجن سعيهن بشهادات عليا ... وطلبوا اليها ، من يومئذ ، ان تنفك عن آلتها الصماء تلك !

– انت ام مثلى !

كذلك قيل لها .

يوم أعلن في الصحف عن العزم على اختيار ام مثلى تمثل على الأمهات ، استفسرت بنتها سهام المحامية معنى ذلك ؟ فقالت سهام :

– تقصد الحكومة الى تشجيع الامهات على تربية الاولاد والأم المبرزة تنصب ملكة عليهن وتكرم وتعطى وساما وهدية رمزية .

اعجبتها الفكرة الا انها لم يخطر في بالها ان تكون هي تلك « الملكة » !

ولكن سهام الخبيثة سعت في اليوم التالي في مضمارها . معلوم ! انها محامية تعرف الاساتذة والقضاة والموظفين ودوائر الحكومة كلها . انها محامية وكان ثمرة المسعى ان دق الباب عصرا كانت الطارقات خمس سيدات ثلاثاً عجائز واثنتين صبيتـــين مليحتين . قلن :

– أهنا بيت المحامية سهام ؟

اجابت :

– نعم !

وفتحت لهن الباب ودعتهن للدخول. ظنتهن اولا صاحبات لبنتها. ولكن سرعان ماابتدرتها كبراهن وكانت على مهابة وجلال :

– حضرتك امها ؟

قالت :

نعم !

وما كاد يستقر بهن المجلس حتى اعلنت احدى الصبيتين :

– سمعنا عن جهادك القصص الطيبة ، ياام الشوق !

فأحست بوجهها يحمر وقالت :

– اللهم حسن رأى الناس فينا .

قالتَ احدى العجائز :

– منذ متى رحل المرحوم ؟ وماذا خلف لك ؟ وكم من البنات ربيت ؟

فاختلج بدنها للذكرى انهن يسألن عن حياتها ! اتكون سهام قد فعلتها ؟ من طلب منها ذلك ؟ انها لاتريد ! تتهيب الوقوف على المسرح امام حشد من الناس! ولكن اتراها تحوز كل صفات الام المثلى ؟

– منذ عشرين سنة .

– وماذا خلف لك من مال : عقارا ، او منقولا ؟

فتشجعت .

– خلف لي بيتا بالكراء ! ومن المنقول : ست بنات رجنينا في رحم الغيب !

وطالعت في وجوههن طيوف تعجب واستفسار فراحت فيض. حكت ملحمتها كاملة . عرق الجبين ودمع العين الينبوعين لذين سقيا الكرمة فأثمرت العناقيد الستة حلوة الرضاب ، وشوقي؟ ن شوقي زهرة تفاح تشرق في قلبها فتغمر حياتها املا باسما .

وفي انصرافهن ، شددن على يدها بحرارة. وقالت كبراهن:

– انك الام المثلى ، يا ام الشوق !

فأحست بالارض تميد بها. اذن، ستقف على المسرح .. ولسوف قلد وساماً .. ويتعالى تصفيق الجمهور .. يالها من لحظة !

واعتلت المسرح .

ورأت الى العيون تحدّق فيها تحديقة الاعجاب . انهـا لم كن تعرف في نفسها اخت تفان امثل . عندما طمحت الى فع مستوى اسرتها ، كان يحدوها العزم على ان تؤمن لبناتها حياة افضل ، مدفوعة بغريزتها المناضلة وايثارها البناتها ولزهرة التفاح خاصة .

وارتفع صوت قوي يهدر في اسماع الحفل :

« ان ام الشوق ام مثلى .. »

يا لها من لحظة خالدة !

« .. رعت بناتها الست وابنها الاوحد خير رعاية ، وسهرت على تثقيفهم .. »

نعم ! كانت تخيط لذلك الثياب وتسهر الليل !

« .. مات ابوهم ، ولم يخلف شيئاً من المال .. »

« .. وبناتها : رشيدة ، المعلمة والأم لأربعة اطفال .. وسلمى ، الموظفة في المصرف والام لطفلين .. وعائشة ، ساعد امها الاعين والام لخمسة صبيان .. وعلية المدرسة في الثانوي .. وسهام ، المحامية .. وعروبة ، طالبة الطب .. اما شوقي الابن الأوحد ، فطالب في كلية الهندسة .. »

يا روحها على شوقي !

« .. وتقرر ان تسمى اماً مثلى لهـذا العام . وقد تفضل اتحاد الجمعيات النسائية وقدم لها هدية رمزية تقديراً وتكريماً .

اوه ! اخجلوا تواضعها ! لم كل هذا ؟

« ... ان ام الشوق ام مثلى . فحيوا معنا ام الشوق »

وشق سمعها تصفيق عنيف . ولمحت بناتها في الصف الاول يحدقن فيها بخشوع وهي في وقفتها الرائعة الشماء . اما زهرة التفاح ، فكان يتطلع اليها باسم الثغر .. فما ملكت عاطفتها والتصفيق يترى ، فهطل الدمع من مقلتيها . ورأت بناتها الست يمسحن دموعهن ، لمحتهن من خلال دموعها .

يالها من ليلة رائعة ! صفق لهـــا كما لم تكن تحلم عمرها . وقلدت الوسام . وحملت الهدية ، كانت قطعة من القماش الفاخر : وكان الوسام من الذهب .

★ ★ ★

ورمت ام الشوق ، وهي في جلستها في الشرفة ، بالابرتين والقبعة البيضاء الى جانب ، وسرحت ببصرها في فضاء المدينة من جديد . تدين لها الاقـــدار اليوم ، كما تدين المآذن لهذه القلعة الشامخة !

لماذا مضيت مبكرا ، يابو شوقي ؟

واحست بدمعة حبيسة في موقها تريد ان تطفر ، فأمسكتها وتلفتت حيرى . ثم مشت الى النافذة في اقصى الشرفة . فلمحت من وراء الزجاج شوقي مكبا على مكتبه يذاكر . سيغدو قريبا مهندسا . سيكتمل به العقد . يالها من سعادة !

وطفرت من عينيها الدموع .

لو كان ابو شوقي حيا ، كم سيسره ان يرى العناقيد الستة وزهرة التفاح في العلاء ! نجاح ، وتكريم . يالها من سعادة !

ورأت شوقي يرفع رأسه عن مكتبه . وكأنما ادرك ان في عينيها دموعا . فقام اليها . فالتوت نحو الاريكة تلملم اشتات نفسها . لاتريد ان تدخل الى نفسه الحزن . فتطلع في وجهها.

– مايبكيك ، ياأماه ؟

وكأنما حضها بسؤاله على البكاء . فقالت منتحبة :

طافت بي الذكرى ، ياولدي .. فتمنيت لو يشهد ابوك ليلة الامس .

فافترت زهرة التفاح عن بسمة جميلة.

– او تحسبين انه لم يكن معنا ليلة الامس ، ياأماه !كانت روحه ترفرف حولنا ، وتوشوش في آذاننا ، وتبارك التكريم ان روحه تواكبنا في كل خطوة خطوناها منذ رحل.. ومادمنا ابناءه ، في الحياة ، فهو لم يرحل عنك .. ان روحه فينا .. نحن اياه ، ياأماه ...

وربت على كتفها بحنان. وانحنى يطبع قبلة البنوة على خدها.

ولما عاد الى غرفته ، مدت يدها الى الابرتين تحيك بها القبعة البيضاء لحفيدها . ثم طفقت تستعيد كل كلمة قالها ابنها ، فيما كانت تشعر بأمواج من الطمأنينة تنداح في قلبها ، فتزرع مع كل موجة فيضا من السعادة والرضا وحب الحياة .

حلب – فاضل السباعي

في افاق الثقافة العالمية

بقية ما نشر على الصفحة « ٣٠ »

العربي ، مستنكرة في بعض الاحيان ، بسبب ما فيها من تحليل عار يضفي عليها طابع الحياد تجاه الاخلاق . وكثيراً ما تبدو الترجمة الامينة لاي كتاب من هذا القبيل امراً غريباً بالنسبة للقارىء العربي ، فلو ترجم مثلاً كتاب « سدوم وعموريه » لبروست ، أو يوميات اندره جيد ، أو « الربيع الاسود » لهنري ميلر أو مجموعة « الجدار » من قصص سارتر ، لوجد القارىء العربي فيها الكثير من الاستهتار والبذاءة اللذين يحجبان عنه كل حقيقة اراد التعبير عنها هؤلاء الكتاب ..

أما ما يلجأ اليه بعض الكتاب العرب المعاصرين من هذه الاساليب العارية ، فهو مجرد تقليد أو مداعبة لاهواء طبقة معينة من القراء لا تعبر عن شيء حقيقي في طبيعة العقلية العربية ، الجديدة. عدا ان هؤلاء الكتاب لا يبدعون شيئاً ادبياً جديداً ولا يكشفون عن حقائق ثمينة في الحياة الانسانية ، لانهم يصورون مشاهد مألوفة باساليب سطحية مغرية ، ويكررون اشياء عادية لا تنطوي على أي ابداع فني او اكتشاف جديد.

صدقي اسماعيل



ادموند هوسرل
والفلسفة الفينومينولوجية
بقلم
تيسير شيخ الأرض

١ – حياته وآثاره

يعد الفيلسوف الألماني « ادموند هوسرل » من الفلاسفة الكبار الذين ظلوا مغمورين طوال حياتهم ، برغم مافي نظرتهم من أصالة وتجديد .

ولد « هوسرل » في مدينة « بروسنيتس » في مقاطعة « مورافيا » عام ١٨٥٩ . تتلمذ على يدي « فرنز برنتانو » (١٨٣٨ – ١٩١٧) الفيلسوف وعالم النفس ، وعلى يدي « كارل اشتنف » (١٨٤٨ – ١٩٣٦) عالم النفس . ذهب الى النمسا وتابع دراسته في الرياضيات في مدينة « فينا » ، ثم تقدم في عام ١٨٨٣ الى جامعتها بأطروحته « أبحاث في حساب المتحولات » فنال عليها درجة الدكتوراه في الرياضيات ، وقد جاوز الرابعة والعشرين من عمره . ولعل هذا الاختصاص يفسر لنا نزعته الفلسفية الخالصة الى التجريد ، فأدى تلقيح الفلسفة بالرياضيات الى باكورة كتبه « فلسفة الحساب » وهو كتاب في منطق الرياضيات وجبر المنطق .

بيد أن « فلسفة الحساب » لم يكن الكتاب الذي يعبر عن اتجاه « هو سرل » الاصيل . أما الاتجاه الفينومينولوجي الذي طبع فلسفة « هوسرل » فقد ظهر الى عالم الفلسفة ، حينما نشر كتابه « أبحاث منطقية » في جزئين ، صدر الجزء الاول منهما عام ١٩٠٠ وتلاه الثاني عام ١٩٠١

وفي عام ١٩٠٦ بدأ يدرس في جامعة « غوتنغن » في جو تملأه الحماسة ، حيث تكونت نواة أتباعه الاول . وفي خلال مدة تدريسه في هذه الجامعة صدر مقاله المشهور « الفلسفة كعلم دقيق » والمجلد الاول من كتابه « أفكار عن الفينومنيولوجيا الخالصة والفلسفة الفينومينولوجية » ، حيث اصبح « هوسرل » يرى في الفينومينولوجيا « فلسفة اولى » و « علماً كلياً » .

وفي عام ١٩١٦ حصل على كرسي الأستاذية في جامعة « فرايبورغ » حيث تتلمذ الفيلسوف الالماني الوجودي « مارتن هيديغر » على يديه ، واضطلع بنشر كتابه « محاضرات في فينومينولوجية الشعور بالزمان الداخلي » .

ومن ثمة نشر « هوسرل » بالتدريج الكتب التالية : « المنطق الصوري والمتعالي » عام ١٩٢٩ ، و « تأملات ديكارتية » عام ١٩٣١ ، و « أزمة العلوم الاوروبية والفينومينولوجيا المتعالية » عام ١٩٣٦ ، و « التجربة والحكم » عام ١٩٣٩ .

اضطر « هوسرل » تحت تأثير ضغط النظام النازي ، أن يتخلى عن كرسيه في جامعة « فرايبورغ » ، ليخلفه فيه تلميذه « هيديغر » ؛ فاعتزل التدريس منذ ذلك الحين ، حتى قضى نحبه عام ١٩٣٩ .

كان « هوسرل » كثير الانتاج ، حتى ان مؤلفاته التي لم تنشر بعد ، تعد اكثر بكثير من مؤلفاته التي نشرت . ويقدر البعض أن هناك ما يقارب خمسة وأربعين ألف صفحة ، اكثرها مخطوط بطريقة الاختزال ، لا يزال عديم النشر حتى الآن ، وقد نقلها « فان بريدا » Van Breda تلميذ « هوسرل » الى مدينة « لوفان » ببلجيكا خشية عليها . بيد انه شرع بنشرها في مدينة « لاهاي » تحت اشراف « مارتينوس نيهوف »

٢ – فلسفته

يصرح [1] « هوسرل » في مطلع كتابه « تأملات ديكارتية » بأن الفينومينولوجيا مدينة بالاندفاعات التي تلقتها من جديد

لـ« رينيه ديكارت » اكبر مفكري فرنسا، وانها قد تحولت عن طريق دراسة « تأملات في الفلسفة الاولى » الى نموذج جديد من نماذج الفلسفة المتعالية، ولذلك يمكن ان تدعى ديكارتية جديدة[٢]. ويتابع كلامه قائلا: « انني اعتقد انني استطيع في هذه الظروف، ان اكون على يقين سلفاً، من انني ساجد لديكم حفاوة ملائمة، اذاما اخترت من بين موضوعات «تأملات في الفلسفة الاولى» كنقطة انطلاق لي، تلك التأملات التي لها قيمة خالدة في نظري، واذا ما حاولت أن استخرج فيما بعد، الصفات المميزة التي تتصف بها ضروب التحول، وانواع التجديد، التي ادت الى ميلاد المنهج المتعالي والمسائل المتعالية[٣] ولا يلبث « هوسرل » ان يصرح بأن « تأملات ديكارت » لا تبغي ان تكون عملا خاصاً من اعمال الفيلسوف « ديكارت » ... بل ان هذه التأملات خلافاً لذلك، توسم النموذج الاصيل لنوع التأملات الضرورية لكل فيلسوف يبدأ عمله، تلك التأملات التي تستطيع وحدها أن تولد فلسفة من الفلسفات[٤]. بيد أنه سرعان ما يتساءل: « الا تقوم النهضة الوحيدة، المنتجة حقاً، على اثارة » تأملات ديكارت » من جديد، لا لكي نتبناها في كل اجزائها دون شك، وانما لكي نكشف قبل كل شيء، عن المعنى العميق للعود الكامل الى الـ « أنا أفكر » الخالص، ولكي نحيي من بعد القيم الخالدة التي تصدر عنه[٥]؟ ثم لا يلبث ان يضيف! « اننا سنحاول أن نتأمل على نحو ما تأمل « ديكارت »، كفلاسفة يبحثون عن نقطة انطلاق أولى، ليست في متناولهم بعد وانه لبديهي ان نتقيد بيقظة نقدية كبيرة، وان نكون على استعداد دائماً، لتحويل الفلسفة الديكارتية القديمة، حينما نشعر بالضرورة تدعونا الى ذلك. انه يجب علينا أيضاً، ان نجنح الى الوضوح، وان نتجنب بعض الاخطاء المغرية، التي لم يعرف لا « ديكارت » ولا خلفاؤه، ان يتجنبوا الوقوع في شراكها[٦]. »

(١) راجع « أ ، م بوفنسكي » في كتابه : الفلسفة الاوروبية المعاصرة و « جان ليوتار » في كتابه : الفينومينولوجيا هامش ص ١١ - ١٢، والمقدمة التي كتبناها لترجمتنا العربية لـ « تأملات ديكارتية » ص ٣ - ٨، من منشورات دار بيروت ببيروت.

(٢) ادموند هو سرل : تأملات ديكارتية، ص ٤١ - ٤٢ من ترجمتنا العربية، مشورات دار بيروت عام ١٩٥٨

(٣) المصدر المذكور، ص ٤٢

(٤) المصدر المذكور، ص ٤٤

(٥) المصدر المذكور، ص ٥١ - ٥٢

(٦) المصدز المذكور، ص ٥٢

ومن هذا يتضح لنا، ان « هوسرل » قد أعجب أشد الاعجاب بمنهج « ديكارت » وفكرته الرامية الى البحث عن نقطة انطلاق اولى للتفكير الفلسفي. بيد أنه يتضح لنا أيضاً، أن « هوسرل » لم يكن يوافق على ان النقطة التي بدأ منها « ديكارت » هي نقطة ثابتة وأكيدة. ولذلك فهو يريد تحويل الفلسفة الديكارتية، كلما دعته الضرورة الى ذلك، كما يريد أن يتجنب بعض الاخطاء المغرية التي وقع فيها « ديكارت » وخلفاؤه من بعده.

وكل هذا ينتهي بنا الى ضرورة الاشارة الى « ديكارت » كلما تطلب ذلك عرضنا لفلسفة « هوسرل ». وذلك لاننا نعتقد ان النقطة التي ابتدأ منها « هوسرل » كانت قريبة من النقطة التي ابتدأ منها « ديكارت » وان كان الخط الذي رسمته فلسفة « هوسرل » قد انحرف انحرافاً كبيراً عن موازاة الخط الذي رسمته فلسفة « ديكارت ».

ونحن هنا سنقسم عرضنا لفلسفة « هوسرل » الى قسمين نتكلم في الاول عن المنهج الفينومينولوجي، وفي الثاني عن المذهب الفينومينولوجي، متبعين في ذلك رأي « غاستون برجيه » Gaston Berger الذي يفرق في الفينومينولوجيا بين منهج فينومينولوجي من ناحية أولى، ومذهب فينومينولوجي من ناحية أخرى[٧]. بيد أنه يجدر بنا ان نسارع الى القول اننا انما نفعل ذلك، لان هذا التقسيم يساعدنا على عرض فلسفة « هوسرل »، لا لأننا نؤمن بامكان فصل المنهج عن المذهب.

١ - المنهج الفينومينولوجي

يؤكد لنا « اويفن فنك » أحد أتباع « هوسرل » ومن ابرز تلاميذه، ان المنهج الاساسي في فلسفة أستاذه انما هو التحويل الفينومينولوجي بصورة قطعية وخالصة[٨]. فما التحويل الفينومينولوجي؟ يمكننا أن نقول بادىء ذي بدء ان التحويل الفينومينولوجي يقوم على مبدئين أساسيين، احدهما سلبي وقد اطلق عليه « هوسرل » اسم « التعليق » وثانيهما ايجابي وقد اطلق عليه اسم « الحدس »

١ - التعليق الفينومينولوجي

ان جوهر هذا المبدأ انما يقوم على نبذ كل أمر لا يمكن

(٧) اندريه لالاند في معجمه الفلسفي، ماده : فينومينولوجيا

(٨) في مقاله « فلسفة » ادموندهوسرل « الفينومينولوجية ومكانتها في الحركة النقدية المعاصرة » المنشور في « دراسات كانتية المجلد ٣٨ ص ٣٤٤. نقلا عن كتاب « غاستون برجيه » :

التحقق منه بصورة برهانية ، او بمعنى آخر ، كل مالا يمكن التحقق منه بصورة تجعل نقيضه مستحيل التصور على وجه الاطلاق . وهذا يشمل كل مافي العالم حتى ذات الفيلسوف . ولكن الفيلسوف لايريد مع ذلك ، أن يحقق وجود المدركات ولايريد كذلك ان يرى في عملية الادراك وهماً وضلالاً [٩] كما فعل « ديكارت » من قبل .

من المعروف ان « ديكارت » يبدأ فلسفته بالشك بوجود العالم الخارجي ، فيمد هذا الشك رواقه على كل شيء ، ولا يستثني غير الذات المفكرة ، التي تثبت وجودها بمجرد شكها وتفكيرها . هنا يتوقف « هوسرل » ويتساءل : هل كان « ديكارت » على حق حينما شك بوجود العالم الخارجي ؟ أفليس الشعور بوجوده دليلًا على هذا الوجود ؟

ومالبث أن وجد أن منهج الشك منهج خاطىء لايمكن الاخذ به ، فاستبدل به منهج التعليق الذي لايشك بوجود العالم الخارجي ، بل يعلقه ، أي يؤجل البحث فيه .

ثانياً ـ الحدس الفينومينولوجي :

بيد أن التعليق الفينومينولوجي ليس كل شيء ، بل مجرد عملية سلبية غايتها حصر العالم بين هلالين . ولذلك كان لابد للمفكر من عملية أخرى تمكنه من متابعة عمله ، وهذه العملية هي الحدس الفينومينولوجي ، وهي ايجابية ، خلافاً للعملية الاولى .

اما مهمة هذا الحدس فهي الاتصال بالاشياء ذاتها ، ليتعلم منها مايمكن لها أن تعلمه اياه عن ذاتها . وهنا يجب علينا الا نخدع بالالفاظ لان الاشياء هي الظواهر في لغة « هوسرل » بل وماهياتها ، أي مضمونها العقلي [١٠] .

وكما انتهى « ديكارت » من شكه الى وضع مبدأ فلسفته المشهور :

« أنا افكر فأنا أذن موجود » فان « هوسرل » انتهى من تعليقه لوجود العالم الخارجي ، الى قاعدته بضرورة الاتصال بالاشياء ذاتها أي بالظواهر او الماهيات ليتعلم منها مايمكن ان تعلمه اياه عن ذاتها .

وفي الحين الذي قطع فيه « ديكارت » كل صلة له بالعالم ، وسجن نفسه في انا وحدية Solipsisme مطلقة ، ولم يستطع ان يخرج منها الا بمعجزة فكرة الاله الكامل ، فان « هوسرل » لم يقطع صلته بالعالم ، بل اجل البحث فيه ليعود اليه بعد بحثه للكيفية التي يدرك بها ال « أنا أفكر » الماهيات ، وليرى أن جوهر ال « انا افكر » هو القصد الذي يجعل كل شعور شعوراً بشيء من الاشياء وليستنتج من ذلك ، انه لايمكن فصل الشعور عما يشعر به أي فصل ال « انا افكر » عن العالم الخارجي .

ب ـ المذهب الفينومينولوجي

كما أن فلسفة « ديكارت » مرت بثلاث مراحل كذلك مرت فلسفة « هوسرل » بثلاث مراحل . ابتدأ « ديكارت » باثباته للذات المفكر ، ثم انتقل منه الى اثبات وجود الله ، وانتهى اخيراً الى اثبات وجود العالم الخارجي . أما « هوسرل » فابتدأ باثبات « الانية » المتعالية وهي غير الذات المفكرة التي بـــدأ منها « ديكارت » كما سنرى ، ثم انتقل الى اثبات الذاتية البينية intersubjectivité وانتهى أخيراً الى اثبات وجود العالم الخارجي وسنحاول أن نعرض فيما يلي ، هذه المراحل الثلاث التي مرت بها فلسفة « هوسرل » مستعينين بمقارنته بـ « ديكارت » كلما وجدنا الضرورة تدعونا الى ذلك .

أولاً ـ مرحلة الانية المتعالية :

رأينا أن « هوسرل » لم يوافق « ديكارت » على منهجه في الشك وارتأى أن يستبدل به منهج التعليق بيد أنه وجد أن « ديكارت » لم يكن أميناً على منطق مذهبه ، حينما توقف عند عبارته : « انا افكر فأنا اذن موجود » وعدها حقيقة لايمكن ان يتطرق اليها الشك . فالواقع أن هذا ال « انا موجود » الذي توقف عنه « ديكارت » ليس سوى « أنا » جوهري لايختلف عن أشياء العالم في شيء ولابد له أن يخضع لنفس المبدأ الذي خضع له العالم .

والحقيقة أن « هوسرل » يفرق في الادراك بين نوعين من الظواهر : همـــا الظواهر النيميـــة والظواهر النيطيـــة ولكي نفهم ذلك لابد لنا من ان نعود ادراجنا الى فكرة « القصد » التي استعارها « هوسرل » من استاذه « برنتانو » .

يرى « هوسرل » ان كل موضوع مدرك هو موضوع مقصود بالضرورة ؛ بل ان عملية التحويل الفينومينولوجي التي تتضمن « التعليق » من جهة أولى « والحدس » من جهة ثانية لايمكن ان تحدث بدون قصد .

وهذا القصد يحول كل موضوع Gegenstand الى مدرك « يقف تجاهي » gegen - stand ، كما يشير الاصل الاشتقاقي لكلمة « موضوع » في اللغة الالمانية . ومعنى ذلك ، انني اميزه

---

(٩) ريجيس جوليفية : المذاهب الوجودية ص ٣٥٧ - ٣٥٨ .
(١٠) المصدر المذكور .

عما يحيط به في عملية ادراكي له من جهة اولى ، واميزه ايضاً عن شعوري الذي ادركه به من جهة اخرى ، وفي كلتا العمليتين يقوم القصد بدور هام جداً[١] . وانا حينما اميز الموضوع عن شعوري الذي ادركه به ، قد اتجه بقصدي الى هذا الموضوع واعنى بالتحديدات التي يعزوهـا الأنا اليه ، من خلال قوالبه الشعورية المحددة ، وبالأنماط الخاصة التي تبدو عليها هذه القوالب مثل انماط الوجود من ممكن ويقيني ومفترض ، ومثل الانماط الزمنية الذاتية من ماضٍ وحاضر ومستقبل[٢] . وهذا مايدعوه « هو سرل » بالظاهرة النيمية . بيد انني قد اتجه بقصدي ايضاً الى الشعور ذاته ، واعنى بوصف قوالبه ، كالادراك والذكرى وما يرافقها من فروق في الوضوح والتميز[٣] . وهذا مايدعوه « هو سرل » بالظاهرة النيطية .

وواضح ان منطق « التعليق الفينومنيولوجي » يقتضينا ان نترك مؤقتاً دراسة الظواهر النيمية المتعلقة بالموضوعات المدركة ، لكي ننصرف الى الظواهر النيطية المتعلقة بالانية المدركة وعندئذ ماذا نرى ؟ اننا نجد انفسنا تجاه الـ « انا افكر » الذي لابد لنا من تفهم بنيته الاساسية .

يرى « هوسرل » ان الشعور (الـ «انا افكر» بلغة ديكارت) وليد عوامل كثيرة طرأت عليه ، عند ادراكه للعالم ، فتكونت حول نواته طبقات شبيهة بالطبقات التي تكونت حول نواة الارض وجعلته على النحو الذي عليه وواجب المفكر ان ينصرف الى دراسة هذه الطبقات ، ويحفر فيها تماماً كما يفعل العالم الجيولوجي حتى يصل الى الشعور البديء (او الانية المتعالية) ويدرس بنيته الاساسية ، وعلى هـذا النحو ، فان « هو سرل » سرعان ما يصل الى مجال الشعور الخالص المتعالي ، المؤلف من الانية المتعالية ومن ظواهر المتعالية الخالصة . وعند هذا الحد ، حد الانية المتعالية ، يجد الوجود اليقيني بيقين برهاني لاينكر ، والذي لايمكن للانكفاء الفينومنيولوجي ان يتجاوزه .

ثانياً – مرحلة الذاتية البينية :

وصل « هوسرل » الى المتعالية ، وأقام بينها وبين العالم هاوية لايمكن عبورها ، فكيف يستطيع من بعد ، أن يخرج من هذه الانا وحدية ، ليلقى العالم من جديد ؟

الحقيقة ان « هو سرل » يتابع منطق منهجه ، فينصرف الى هذه الانية المتعالية ، ليتفحص بنيتها . وعند تحليله لهذه البنية ، يجد ان هناك شيئاً حاضراً للانية المتعالية وفيها ، كـ « عالم » مؤلف من مراكز منادية » ، هي النواة التي يصاغ منها عالم مشترك بين الانيات جميعاً ، انيتي انا والانيات الاخرى.

اما هذا العالم ، فيدعوه « هوسرل » بـ « العالم الاولي » .

واذا ماشرعنا بتحليله ، فاننا سنقف فيه على طبقتين : طبقة « مايخصني » من هذا « العالم » ، وطبقة « مالا يخصني » منه أو « ماهو غريب عني » فيه . بيد أن « عالم » الانية ومايخصها ، لايلبث أن يتوضح فوقه معنى من المعاني ، فيصبح « العالم » ظاهرة من ظواهر العالم الموضوعي ، وهو واحد بالنسبة الى كل فرد ، وفيه يبدو « الآخر » الذي هو اول في ذاته ، « أنا » آخر .

ولكن ، كيف يبدو لنا الانا الآخر في هـــذا العالم الموضوعي ؟ ان « هوسرل » يرتد الى « القصد » من جديد ، ليدرس عمله بهذا الصدد ، فيجد أن هناك ضرباً من « القصد » يدل على « الترافق بالوجود » ، وهو عبارة عن حدس بالمماثلة ، يطلق عليه « هوسرل » اسم « الشعور بالحضور » وهو « خلق أولي » في نظره .

يبدأ « هوسرل » يأخذ بتحليل معنى « انية أخرى » ، فيجد أن هذه التسمية تدل بشقها الاول ، اي بلفظة « انية » على « انيتي » انا ذاتي ، حيـنما اتكون انا ذاتي ، في دائرة « مايخصني » الاولية . بيـــد أن شقها الآخر ، اي لفظة « أخرى » ، انما يحيلنا الى « الآخر » من حيث هو موضوع القصـد .

لنفترض انساناً آخر داخلاً في حقل ادراكي ، ان هذا يعني في مجال التحويل الاولي ، ان هناك جسماً يتراءى في حقل ادراكي ، وما ادراكي له الا ادراكي لطبيعتي الاولية . ان هذا الجسم ، بصفته جسماً أولياً ، لايمكن الا ان يكون عنصراً محدداً لذاتي . ومن هذه الناحية ، فهو متعال بصفته جسم الآخر ، ولكنه محايث ايضاً ، نظراً لانه يتراءى في حقل ادراكي لطبيعتي الاولية . والحقيقة ، أنه مادام بدني وحده هو الذي يبدو لي (بصفته عضواً عاملاً) بدناً بالمعنى الصحيح للكلمة ، فقد كان لا بد لجسم الآخر ، ان يحوز هذا المعنى ايضاً ، عن طريق انتقال ادراكي من بدني اليه .

ونتيجة ذلك ، ان هناك تشابهاً يربط هذا الجسم الآخر بجسمي في الدائرة الاولية ، عن طريق حدس بالمماثلة ، اوشعور

«١» جان ليوتار : المصدر المذكور ص ٣٠

«٢» ادموند هوسرل : تأملات ديكارتية ، الترجمة العربية ص ١٠٨

«٣» نفس المصدر المذكور .

بالحضور ، كما يقول لنا « هوسرل » ايضاً . وبمعنى آخر ، ان هناك مزاوجة تنشأ بين « انيتي » الخاصة بي و « انية » الآخر ، في حقل ادراكي لطبيعتي الاولية . وهذا يعني انتقال المعنى من احـــد عضوي المزاوجة الى العضو الآخر ، اي من بدني الى جسم الآخر . ولذلك لا يلبث جسم الآخر أن يكتسب معنى البدن ، حينما يثبت وجوده بسلوكه هـــذا السلوك المتغير ، والذي يبقى في تطابق مع ذاته ، برغم التغيرات التي تطرأ عليه فنلمس حينئذ حياة نفسية مرافقة له ، بل سائدة عليه . وعندئذ ندرك الآخر كانسان نفسي طبيعي ، مثلما أنا انسان نفسي طبيعي ؛ ولا يلبث ان يصبح بما هو كذلك ، تعديلاً قصدياً في أناي ، الامر الذي يضفي عليه صفة « ما يخصني » ويجعله مكوّناً لـ « ما يخصني » .

ومن ناحية اخرى ، ان بدني يعطى لي في نمط ماهو «هنا» في حين ان جسمه يعطى لي في نمط ماهو « هناك » .

بيد ان الـ « هناك » قابلة للتغير الحر ، بفضل الحالات الحشوية التي تتوالى في ، بحيث يمكن ان يصبح الـ « هناك » هنا ، بمجرد تغييري لموقفي ، وبمجرد امكاني أن انتقـــل الى « هناك » ،بل وان أحتل أي « هناك » في المكان . ولكنني لا ادرك ذاتي فقط على هذا النحو ، بل ادرك الاخر عليه أيضاً . انني ادركه ولديه ظواهر كالظواهر التي لدي ،وادرك أن باستطاعته أن يكون هو أيضاً « هنا مطلق » ، مثلما انا « هنا مطلق » ، وان بامكانه ان يجعل الـ « هنا » هناك ، وان يحتل أي « هناك » في المكان .

وبهذا يتحقق ضرب من المزاوجة ، فتستطيع الانية ان تخرج من الأنا وحدية ، لتلقى الآخر ، بل كل آخر ؛ لتلقى « انية » أخرى لا تشبه « انيتي » ، بل تحيل الى ذاتي بمعناها التكويني ، لانها « انعكاس » لهـا . وعلى هذا النحو ، يمكن تكوين مجال جديد من « ما هو غريب عني » ، فـــلا يبقى الآخرون في حالة انعزال عني ، بل يتكونون في دائرة « ما يخصني » معشر من الانوات ، أنا وحيد فيه . وعندئذ تنشأ دائرة امتلاك ذاتية بينية يتكون فيها العالم ، وتشكل « نحن » متعالياً . وهنا لايعود العالم عالياً بالنسبة الى الذاتية البينية ، بل يصبح متضمناً فيهـا ، بصفته تعالياً « محايثاً » ؛ وتكون نتيجة ذلك ، قيام الانسجام بين « الانيات (١٤) » .

وعلى هذا النمو تنشأ الذاتية البينية ، عن طريق اتصال الانية الذاتية بالانيات الاخرى وتفاعلها معها ،فتشكل القاعدة الاساسية للعالم الموضوعي الذي يتطرق العلم الى دراسته ، ويصبح عن طريقه ممكناً .

ثالثاً – مرحلة العالم الموضوعي

ولكن ، اذا كانت الذاتية البينية هي القاعدة الاساسية التي يقوم عليها العالم الموضوعي ، فما هي الخطوات التي يتبعها العالم للوصول الى المعرفة ؟

يرى « هوسرل » أن اول مايتكون كمشاركة في الذاتية البينية ، هو وجود « الطبيعة » العالم ، ويشمل جسم الآخر وأناه النفسي الطبيعي ، وقد تزاوج مع أناي النفسي الطبيعي .

وأنا ، حينما أدرك بدن الآخر ، وأناه النفسي الطبيعي ، بل حينما ادرك الآخر هناك ، انا اشعر بعمله على « الطبيعة »التي يدركها ، وعلى ذات « الطبيعة » التي يخصها هو الـ « هناك » ، والتي هي « طبيعتي » الاولية أيضاً . انها « الطبيعة » ذاتها ، ولكنها معطاة في نمط « كما لو أنني كنت أنا في مكان هذا البدن الآخر » .

وعلى هذا النمو ، فما يؤلف « طبيعتي » بمجموعه ، هو ما يؤلف « طبيعة » الآخر بمجموعه بالذات،بيد أن هذا لا يصدق على الآخر فقط ، بل على كل آخر أيضاً . وهذا مايؤدي الى أن تتكون « الطبيعة » كهوية ناتجة عن تعددات كثيرة وغنية تعطى لي على شكل « مايخصني » .

ان هذه الهوية القائمة بين طبيعتي الاولية ، والطبيعة كما يتصورها الآخرون ، هي هوية ضرورية ، تبعاً للهوية القائمة بين الشعور بالحضور والحضور المرافق له . ومن هذا ينتج ان ادراكي للعالم الخارجي ، هو ادراك الآخر له ،بل كل آخر وذلك هو الحد المشترك الضروري لنشأة العلم ، وهو ماندعوه « الطبيعة الموضوعية » .

غير ان هذه الطبيعة لاتلبث أن تأخذ لها صورة زمانية عن طريق تصوراتي المتتابعة والمنفصلة . واذا تأملنا معنى التصورات ، وجدنا أن كل تصور هو اعادة حضور الشيء المتصور ، أي ان التصور الحاضر كان حضوراً ماضياً ، وهذا يتضمن صورة الزمان التي تطبع كل تصور . ومن جهة أخرى فان هذه التصورات وان كان بعضها منفصلاً عن البعض الآخر فهي خاضعة لتركيب موحد ، يربط فيما بينها ،ويرافقه شعوري البـــديهي بأنهـــا لاتزال هي ذاتها ، الامر الذي

---

(١٤) ادفو ندهوسرل : تأملات ديكاتية ، الترجمة العربية ص ٢٠٥ – ٢٧٧ ، منشورات دار بيروت بيروت

ينتهي بي الى انشاء صورة زمانية تتكرر هي ذاتها، وهي صورة زمانية تتكرر فيها التصورات، دون ان تتكرر هي ذاتها وهي صورة مملوءة بذات المضمون. وهذه الصورة هي الزمان الموضوعي الذي يربط بين الافراد، كما ربط بينهم العالم من قبل.

وعلى النحو ذاته، تنشأ مشاركة بين الـ « أنا » والـ « انت » في هذا العالم، وتؤدي الى نشوء الحياة الاجتماعية، بل الى مجتمعات كثيرة، يختلف كل منها عن الآخر في كثير أو قليل، سواء في حياته أو في ثقافته. غير أن افراد كل مجتمع من هذه المجتمعات، يدرك مجتمعه من الداخل، عن طريق المشاركة الحية [١٥].

واذا امكن قيام المشاركة بين الانوات في العالم الموضوعي وامكن قيام مجتمعات ذات ثقافات متعاونة، فهذا لابد ان ينتهي الى تطابق التصورات، والى امكان قيام العلم قياماً مشروعاً.

٣ – تعقيب

يهمنا بعد ان أنتهينا عن عرض حياة « هوسرل » وفلسفته أن نتفحص بنظرة ناقدة قيمة هذه الفلسفة. ولن يتسنى لنا ذلك الا اذا عرفنا الروح التي سيطرت على هذه الفلسفة، والاتجاهات التي استوحتها، والاتجاهات التي أثرت هي فيها.

(١) الروح التي سيطرت على فلسفة « هوسرل »

من الامور التي اثبتتها الدراسات التاريخية من ناحية اولى، والدراسات الاجتماعية من ناحية ثانية، هو ان كل مايتعلق بالحضارة يتأثر بحوادث الماضي البعيد التي ادت الى ميلاده، كما يتأثر بجميع الحوادث المرافقة له في الحاضر. وهذا ينطبق كل الانطباق على الثقافة بصفة عامة وعلى الفلسفة بصفة خاصة. فلنحاول ان نرى اثر ذلك في فلسفة « هوسرل ».

رأينا ان « هوسرل » يستوحي « ديكارت » فيما يتعلق بنقطة البدء، وان الروح التي سادت الفلسفة الديكارتية، هي التي سادت فلسفة « هوسرل » وان يكن ذلك على نحو جديد. بيد اننا اذا توقفنا عند « ديكارت » لانكون قد رددنا الفلسفة الفينومينولوجية الى الروح الاصلية التي صدرت عنها، والتي صدرت عنها فلسفة « ديكارت بالذات. ان هذه الروح هي روح التفكير الرياضي بصفة عامة والتفكير الهندسي بصفة خاصة.

يعرف المثقفون ان جوهر التفكير الهندسي انما يقوم على تحليل الاشكال المشخصة المعقدة، الى مبادئها المجردة البسيطة، وان الانتقال انما يكون من الجسم الى السطح، ومن السطح الى الخط، ومن الخط الى النقطة. فالنقطة هي نقطة البدء في التفكير الهندسي، تتألف منها جميع الاشكال الهندسية، ولا تتألف هي من واحد منها. فالمستقيم هو حركة النقطة في اتجاه واحد، والسطح هو حركة المستقيم في اتجاه غير اتجاه النقطة، والجسم هو حركة السطح في اتجاه آخر غير الاتجاهين السابقين.

واذن، فالنقطة هي المفهوم الاخير الذي وجدت الهندسة أنها تستطيع ان تستند اليه، بعد هذه العملية الانكفائية التي قامت بها ابتداء من اشكال الاجسام المادية. ولكن الهندسة وقد وجدت نقطة ارتكازها، لابد لها ان تعود أدراجها لتبني العالم الهندسي من جديد، لا كما كان في ماديته، بل كما تريده في قوالبها الفارغة التي يمكنها ان تصب بها كل مادة. اما المبادىء التي تستند اليها فثلاثة هي: البديهيات، والتعريفات، والمسلمات. ويمكننا ان نقول: ان التعريفات هي التي تحدد موضوع الهندسة، أما المسلمات فهي البدء التي لابد من التسليم بها، يقوم العلم الهندسي، وان لم يكن هناك برهان عليها. بقيت البديهيات، ويمكننا ان نقول عنها: انها اشكال مختلفة لمبدإ الهوية ومشتقاته الذي يكون جزءاً هاماً من بنية العقل.

تلك هي المبادىء الثلاثة التي يستخدمها العالم الهندسي، ليبني عن طريقها النظرية تلو النظرية، الى ان يتم البناء الهندسي بأكمله، خطوة اثر خطوة. اما المسلمات فتعد الاساس الذي يقوم عليه البناء الهندسي، في حين ان التعريفات هي تحديد للمفاهيم التي هي بمثابة الحجارة التي توصف في هذا البناء، وما البديهيات الا الملاط العقلي الذي نستخدمه لربط المفاهيم بعضها ببعض.

وهنا لابد لنا أن نتساءل: ماهو وجه الشبه الذي يربط بين هذه الروح الهندسية، وبين الروح التي سادت فلسفة كل من « ديكارت » و « هوسرل »؟ الواقع، ان كلا منهما لجأ الى الاسلوب نفسه، فشرع ينكفىء حتى وجد نقطة ارتكاز اخيرة له، ثم بدأ يبني منها عالمها الفلسفي.

فهذا « ديكارت » قد شك بالعلوم التي وصلت اليه، فانكفأ عنها الى العالم الذي تتطرق الى دراسته، فوجد انه لايمكن له ان ينجو من هذا الشك ايضاً، ثم وجد ان بدنه جزء من هذا

«١٥» ادموند هوسر: تأملات ديكارتية ص ٢٧٧ – ٢٩١ من الترجمة العربية المشار اليها.

العالم ، ولا بد للشك من ان يشمله كذلك ، الى ان وصل الى ذاته المفكرة ، فوجد انه لايمكن له ان يشك فيها ، اذ انه بمجرد كونه يشك فهو يفكر ، وبمجرد كونه يفكر فهو موجود وهكذا اطلق عبارته المشهورة : « انا أفكر فأنا اذن موجود » وبذلك أساساً لفلسفته مالبث أن اثبت عن طريقه وجود العالم الخارجي .

هذه الطريق عينها سلكها « هوسرل » أيضاً وان يكن ذلك بأسلوب جديد . لقد بدأبتعليق العالم الخارجي فوجدنفسه أمام الا « أنا » النفسي الذي توقف عنده « ديكارت » وعده حقيقة لا يمكن الشك فيها غير ان « هوسرل » وجد أن هذا الا « أنا » لايختلف في شيء عن العالم الخارجي ، بل هوجزء منه فاضطر الى تعليقه أيضاً ووصل الى « الانية » المتعالية التي هي اصل كل مشاركة في العالم الخارجي والتي وجد أن وراءها«أنا» آخر ليس من شأنه أن يشارك في معرفة العالم ، بل يكتفي بالمشاهدة والملاحظة [16] ؛ فتوقف عنده ،ورأى فيه نقطة ابتداء فلسفته . بيد أنه مالبث أن انطلق منه ، عائداً ادراجه الى الانيـــة المتعالية ليحلل بنيـــتها ثم لينتقل منهــا الى الذاتية البينية ، ومنها الى وجود العالم الخارجي وامكان العلم .

وبعد أفليست هذه الطريق هي الطريق التي سلكتها الروح الهندسية منذ « اقليدس » والتي اتبعها « ديكارت » في انشاء فلسفته قبل « هوسرل» ؟

(٢) الفلاسفة الذين اثروا في « هوسرل »

ولكن ، هل اكتفى « هوسرل » بهذه الروح الهندسية في بناء فلسفته ؟ الواقع لا اذ أنه تأثر بكثير من الفلاسفة الذين سبقوه بيد أن تأثير هؤلاء كان يقتصر على جوانب معينة من فلسفته ، في حين أن الروح الهندسية طبعت فلسفته كلها بطابعها ماعدا فكرة « القصد » التي استعارها من استاذه «برنتانو»والتي أتاحت له أن يطبق الاسلوب الهندسي في المسائل الانسانية .

بيد ان « هوسرل » تأثر ايضاً بـ « هيغل » واستعار منه كلمة « فينومينولوجيا » ورأى فيها مثله أنها«علم الشعور » وان الشعور ذاته ليس الا«العلاقة المحددة بين الذات والموضوع[17]» .

كذلك تأثر بـ « كانت » والحقيقة ان هناك شبهاً كبيراً بين بنيته العقل النظري لدى « كانت » وبنيته الانيه المتعالية لدى « هوسرل » .

بل ان طريقة طرح المسألة الفلسفية لدى « هوسرل » هي طريقة طرحها لدى « كانت » اضف الى ذلك ان الاول اخذ عن الثاني فكرة « القبلية » وفكرة «التعالي» وفكرة (الذات المكونة للعالم) [18] .

كذلك تأثر (هوسرل) ببعض الفلاسفة الآخرين مثل (مين دو بيران) و (ليبنز) وأستاذه (كارل اشتنف) [19].

« ٣ » الاتجاهات التي أثرت فيها فلسفة « هوسرل »

استطاعت فلسفة (هوسرل) انتترك آثارها في الاتجاهات الفكرية التي تلتها ، شأنها في ذلك شأن كل فلسفة عظيمة أما هذا الاثر فظهر في اتجاهين ، احدهما فلسفي والآخر علمي .

أثرت فلسفة «هوسرل»في المذاهب الفلسفية المختلفة الاتجاهات مثل فلسفة « ماكس شلر » و« مارتن هيديغر »و «جان بول سارتر » و « غبرييل مارسيل » و « موريس ميرلوبونتي » و «نيقولاي هارتمن » و « ج . ا . مور » .

كما اثرت في العلوم الانسانية ،مثل علم النفس والتاريخ وعلم الاجتماع ، فاصبحت الطريقة الفينومينولوجية هي الطريقة المثلى في دراسة هذه العلوم ، وخلصتها من بعض المآزق التي اقحمت نفسها فيها [20] .

خاتمة

ولانستطيع في نهاية هـذا المقال ، الا ان نعترف بعظمة فلسفة « هوسرل » لسببين :

(١) المنحي الرياضي الذي اتخذته ، والذي اكسبها دقة كبيرة اثناء البحث ، فردت المعقد الى البسيط ، ثم استخدمت هذا في سبيل فهم المعقد فهماً واضحاً ومتميزاً ، اذا لجأنا الى استعمال الصفتين اللتين وصف بهما « ديكارت » كل بداهة .

(٢) الاثر الذي خلفته في الفلسفات المعاصرة ، والعلوم الانسانية ، التي دفعتها دفعاً حثيثاً الى التقدم .

تيسير شيخ الارض

---

(١٦) غاستون برجيه : المصدر المذكور ص ٤٥ - ٤٦

(١٧) جان ليتوتار : المصدر المذكور ص ٤٢

(١٨) غاستون برجيه : الكتاب المذور ص ١٢٢

(١٩) راجع تفصيل ذلك في المقدمـة التي كتبناها للترجمة العربيه لكتاب « هوسرك » ص ١٩ — ٢٠

(٢٠) راجع تفصيل ذلك في لمقادمة المذكورة ، ص ٣٦ — ٣٨

عوذتها بلهيب

شعر

نذير الحسامي

دنيا ، من الياسمين الحلو ، زوقها
حبي وغرد ، في أفيائها ، حلمي
دنياي ، مهما نأت ، عني ، بفتنتها
فان ، فيها ، شذا دمعي وطعم دمي
يا ليل ، أي ذبول ، فيك ، يفزعها
طيف ، له ، يسلب الريحان ، في الظلم ؟
يمشي ، الى الزهر ، عاش الزهر ، يحطمه
جنح الخريف ، بعادي الموت والسقم
يا ليل ، لا تقترب ، منها ، بنائبة
ولا تصب ، عليها ، عارض النقم
على الذبول أزاهيري ، محرمة
اياك يا ليل ، أن تعدو ، على حرمي
دنياي ، خالدة ، بالحب ، ناضرة
شبابها الغض ، فوق الشك والتهم
دنياي ، فيها ، الجنى الفواح مؤتلق
يجوده ، من فؤادي ، واكف الديم
الياسمين ، بها ، باق ، يفتحه
على الليالي ، ربيع ، من هواي ، ظمي
عوذتها ، بلهيب ، غير منطفىء
في جانحي ، وجرح غير ملتئم

...

ياليل ، دنياي ، لي ، ملك ، وان بعدت
خضر المجاني ، بها ، عن مقلتي وفمي
دعها ، فلن يذوي النسيان ، خضرتها
ولن تصير أمانيها ، الى العدم
دعها ، ودع طيرها تشدو مرجعة
حنينها ، لغرام ، منه ، لم تنم
أتستبيح ، حمى قلبي ، وتهتكه
ومن ، لقلب ، ببعد الياسمين ، رمي ؟
أتسلم ، الطيب ، للاعصار ، ينهبه
وتسفح الشهد ، في كأس ، من الحمم ؟
لا تظلم ، الياسمين الحلو ، يسعدني
رياه ، بالشوق والتحنان والالم
دعني ، أدلل ، ذكراه ، وأعبدها
عبادة الوثني ، الصب ، للصنم
دعني ، ابعثر عمري ، ثم اجمعه
عشاً يفيىء ، اليه ، غير منهدم
كأني ، الى النار ، فيه ، استريح بها
من السلو ، فما السلوان ، من شيمي

...

يا ليل ، خل حبيبي ، لي يؤرقني
ازدك ، والله ، انغاماً ، على نغمي
اليك مهمجة مشتاق ، الى كبد
تقطعت ، من لظى الاشواق ، بالضرم
لا تسلبني ، عبيراً ، من سلافتها
يضيىء ، في القلب ، الواناً ، من النعم
ولا تمد ، اليها ، ياغوي ، يدا
اني اغار ، على عنقودها النهم

١٩٥٨/٥/٤

نذير الحسامي

فنانون والوان

بقية ما نشر على الصفحة « ٢٤ »

واستدعي بعد مصرع العقيد المالكي الى دمشق ليصنع له تمثالا ، لقاء عشرة آلاف ليرة سورية هي المكافأة والتكاليف معا . واقام في دمشق سنة وبعض السنة منصرفا الى صنع التمثال ، وانقطع عنه خلال ذلك مرتبه من البلدية . واستنفدت المكافأة تكاليف التمثال ولقمة العيش .. وهنا ظهرت بوادر العلة الرهيبة في جسد الفنان الذي كانت روحه تفتح نبوغا واعداً مبشراً . وثقلت العلة ، وما رحمت شبابه الريان ونبوغه المتفجر ، فقضى في السادس عشر من نيسان الماضي (١) .

ويتسم فن فتحي محمد في تماثيله بالانطباعية التي تأثر فيها باستاذه سيفيرو الايطالي . الا ان ملامح الكلاسيكية تظلل فنه على كل حال ، ذلك ان اكاديمية الفنون الجميلة التي قضى فيها سنين سبعا تتخذ من الكلاسيكية مذهبا لها ومنهجا في فروعها المختلفة .

صنع الفقيد تماثيل كثيرة بعضها محفوظ في المتحف والمعاهد الفنية في ايطاليا ، وبعضها يقبع في عتمة الصناديق الخشبية في اقبية المفوضية السورية في روما ، في انتظار ان يرزق الفقيد مالاً يتاح له به ان يشحنها الى ارض الوطن .

ولعل من ابرز اعماله الفنية تمثاله الموسوم بـ « اليافع »(٢) الذي يمثل ولدا في يده تفاحة .. انه الحقيقة الكاملة الخالية من كل اثر للصنعة والتكلف . وقد حاز به الدرجة الاولى على طلاب المعاهد الفنية في ايطاليا بلد الفن والجمال (٣) .

ذلك موجز لحياة الفنان النابغ فتحي محمد .

انه شهاب .. ومض في سمائنا ، فما وعته الابصار ، فخبا .. اسوان حزينا . انه لم يلق التقدير في حياته المعذبة البائسة .

فتحي محمد .. لم يلق التقدير في حياته .. أتراه يلقاه بعد ان رحل ؟.

ما اكرم الامة التي تقدر ابناءها النابهين في الحياة وبعد الموت !

ف . س

(١) ولد الفقيد في الثاني من شباط عام ١٩١٧ .

(٢) محفوظ في متحف فلورنسا للفن الحديث .

(٣) يوالي الفنان غالب سالم كتابة المقالات عن حياة الفقيد وفنه في جريدة « الاسبوع السياسي » الحلبية .

كنت جالساً في مقهى يفصله عن الشارع حائط من الزجاج عندما اخذ صديق ما ينصحني بالابتعاد عن قراءة الكتب ، وكانت شمس الظهيرة التي تغمر الشارع كجسد انثى فاتنة ، فقلت له :

ـ انا ولدت في سنة ١٩٣١ .. امي لم تمت بعد ... العالم كله كئيب .

قال : آه ما اجمل كلمة : فخذ .

قلت : ليتني كنت غراباً .

قال : لاشيء اشهى من امرأة عارية .

قلت : ليتني كنت غراباً .

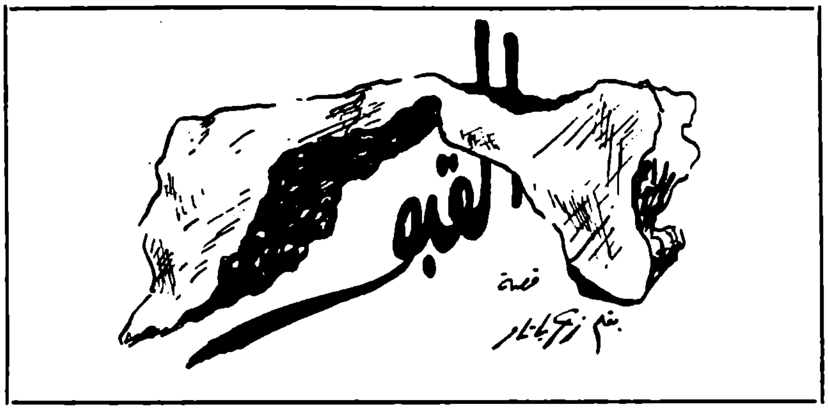
قال : هل قبلت فتاة صغيرة ؟

قلت : ليتني كنت غراباً .

وفي المساء حينما رجعت الى قبوي حيث تتعاقب ايامي بلا افراح .. قلت لامي :

ـ هل سأل عني احد ؟

ـ لم يسأل عنك احد .



فامتلكتني خيبة مريرة واحسست باني اشد المخلوقات بؤساً ولم استطع البكاء لان عيني امي كانتا تراقباني بفضول فقصدت المرحاض وهناك اسندت خدي بجداره الخشن الوسخ وانتحبت طويلاً دون خجل ثم غسلت وجهي بماء بارد وذهبت لمشاهدة فيلم هزلي اضحكني كثيراً .. وطفقت امشي بتكاسل اثر خروجي من صالة السينما وكان القمر الابيض معلقاً في فراغ الفضاء الاسود وهواء الليل رطباً استنشقه بشراهة .. وتوقفت بعد مسير قليل عند قطعة ارض ملأى باكوام التراب والحجارة ونفايات المنازل المجاورة واخترت باهتمام كومة من ورق الصحف الممزقة ثم بدأت ابول فوقها وتذكرت آنئذ امرأة كنت احبها وكان يعذبني بقسوة اشتهائي المجنون لجمالها الذي لم اتمكن من نواله رغم اني حلمت دوماً باسقاطه في حريق شبقي فتخيلت باستمرار المرأة مغمضة العينين نصف اغماضة تلهث مفتوحة الفم وحسبت وقتئذ ان حبي لها سيظل حياً حتى موتي ولكني نسيتها بعد حين واصبحت مجرد ذكرى تثير حنقي على ماضي الابله .

وبصقت بسخط ثم تابعت زحفي عبر خواء الشارع ومن حولي مصابيح شاحبة متدلية من اعمدة سوداء وحارس ليلي يجر جسمه البدين بالقرب من كوخه الخشبي وابنية ونوافذ قليلة مضاءة . . ينساب من احداها موسيقى عذبة اصغيت اليها بكثير من النشوة .

واعترض طريقي مخلوق قصير القامـــة ابتدرني متسائلاً بلهجة متعالية :

ـ كم الساعة ؟

فلم اتفوه بكلمة انما ابتسمت بمرح وقلت لنفسي : « لماذا يسأل مادام سيموت في يوم من الايام ؟ » . وظلت خطواتي محتفظة بايقاعها البطيء . واطلقت ضحكة قصيرة اذ شعرت برغبة في حك رأسي فان تحقيقها لا يتطلب مني سوى حركة من اصابعي ولكن قيامي بمثل هذه الحركة وانا صغير في المدرسة كان كافياً لكي يحفز الطلاب الى التصايح هازئين :

ـ رأسه كلها قمل !

ورفع شخص اعرفه يده محيياً : مساء الخير .

فأجبت بصوت جامد : مساء الخير .

وكنت قد غدوت قريباً من البنايـة التي اسكن في قبوها ولم تمض سوى لحظات حتى كنت انحدر الى اسفل وحينما صفقت الباب خلفي شعرت بطمأنينة غريبة ولكني اكتأبت بعض الشي اذ وجدت امي ماتزال ساهرة تنتظرني .. قالت :

ـ تأخرت في السهرة .. جسمك ضعيف وهو بحاجة للنوم والراحة .. غداً عندك شغل .. هل نسيت ؟

فأجلت نظراتي فيما حولي .. اني اعيش في هذا القبو .. العالم يجثم فوقي . أنا سأظل حتى النهاية في قعر المدينة ، يوم عطلتي انتهى .. غداً عمل .

وزحف الى اعماقي قرف راح يتزايد شيئاً فشيئاً متبلوراً في رغبة بالتقيؤ ، ووجدت نفسي انحني الى الامام بحركة مفاجئة ضاغطاً باصابعي على بطني ثم أتقيأ ، أع ..أع ..فأسرعت امي الى الاقتراب مني متسائلة بجزع :

ـ مابك .. سكران ؟

وتهدل جسدي منزلقاً الى الارض وتكوم فوق السائل اللزج الذي تدفق من فمي قبل لحظة وحدقت صامتاً في امي المذهولة ، وبدأت كل الاشياء التي حولي تغرق في لون رمادي دائب الترنح وتنأى متضائلة رويداً رويداً فأغمضت عيني مستسلماً

لدوامة من الموبجات السوداء :
وبدأت الاسطوانة السوداء تدور برتابة تحت ذراع الحاكي
وتغلغلت الموسيقى المرحة في الهواء الذي استنشقه
ومن مقعدي القابع قبالة النافذة كنت استطيع مشاهدة
رؤوس اشجار عارية متجهة الى السماء الصافية
بصلاة شاحبة .
قالت المرأة : اسمي مارنا .. اترقص ؟
قلت : انا لاأتقن الرقص .
فأجابت ضاحكة : سأرقص وحدي اذن
وشرعت ترقص .. كان في جسدها اله مجنون
راح يعبر عن يأسه وعجزه وخيبته وعزلته الابدية
في رقصة متنافرة مع ايقاع الموسيقى العنيف .
ووقفت المرأة امامي حين صمتت الموسيقى وسألتني
وهي تلهث : هل أنا جميلة ؟
وبدت في تلك الهنيهة اكثر جمالاً من سماء قرمزية
كبيرة . وارتجفت حينما انفرجت شفتاها عن بسمة
تسلل اغراؤها الى اعماقي كموجة عطر ناعمة واستيقظ
نهر دم حار وهدر فتياً تحت انوار بيضاء شرسة
واستولى علي حنين متوحش الى تجرع خمور الاله
المجنون المختبيء في جسدها فالتصق فمي بلحم
الكتف العاري وطفق يرتشف على مهل لذة
وهبتني فيضاً من ارتعاشات ثملة . وبغتة فوجئت
بتبدل بشع اذ اخذ اللحم يهتريء ويتفتت ويتساقط
الى الارض قطعاً صغيرة صفراء كريهة الرائحة فاذهلني
هذا التحول وتراجعت الى الخلف مذعوراً واندفعت
نحو باب الغرفة ففتحته بضربة من قدمي وانطلقت الى
الخارج تتبعني ضحكة باردة طويلة .
واحتضنني بشفقة نهار ابيض وديع اسلمني الى احد الارصفة
لاواجه ضجيج سوق متخم بالناس
ومضيت أشق طريقي وسط زحام الاجساد البشرية
المتلاصقة بينما كانت السماء الرحبة تغرد فوقي باعثة
في نفسي سلاما عميقاً .. سرعان مابدده صراخ
طوقني ومسكتني ايد كثيرة وجرتني نحو جثة رجل
يغوص في ظهره خنجر حتى المقبض .
ــ انت القاتل .
ــ لم اقتله .. هل اقتل ابي ؟
ــ كلنا شاهدناك وانت تقتله .. اشنقوه .. اشنقوه .
وببطء شديد صعدت درجات المشنقة وعندما
التف الحبل الغليظ حول عنقي ابتسم لي الجلاد وتألقت
عيناه الجائعتان .. وسقطت في الفراغ ودهمني ألم
صاعق وفتحت عيني بعد هنيهة فوجدت نفسي
منطرحاً على ظهري وسط سهل فسيح جداً مغطى
بثلج اسود وتمتد السماء فوقه قاتمة بلاضوء .
وكان الصمت المفزع ينتشر في كل الارجاء وأحسست
بان ثمة اعداء مجهولين يزحفون نحوي وقبل ان اطلق
صرخة هلع مدوية اشرقت شمس كبيرة وغدت
السماء زرقاء رائعة وتلاشى الثلج الاسود
واكتست الاراضي بخضرة ناعمة وهدر غناء
شجي مهيب تلاقت فيه واتحدت
السماء والارض الخضراء والشمس وملايين البشر
وتدفقت غبطتي كسيل منحدر من قمة جبل
وفجأة هيمن صمت عجيب وسمعت صوتاً
نسائياً يناديني ...
وفتحت عيني لاجد امي منحنية فوقي .. سألتني بلهفة :
هل انت بخير الآن .. انهض .. سأساعدك .
فحملقت في المصباح الكهربائي المتدلي من السقف .. ها أنا
مرة اخرى في قبوي لااقدر على الفرار من قبضته .. واطبقت
جفوني وفي تلك اللحظة كانت الدماء المنسابة في شراييني نهر
رماد بارد وكانت كآبتي اقسى من عذاب ارض بلا مطر ولم
اكن اكثر من كومة لحم بائسة لايستطيع مساعدتها اي اله .

دمشق زكريا تامر

السمفونية التاسعة

بيتهوفن

في هذا الباب من كل عـدد سنقـدم بحثاً تحليلياً لموسيقي او لأثر موسيقي ، ونحـن في هذا الفصل نتابع تحليل السمفونية التاسعة .

ولعل القارىء العربي ، ما اعتاد بعد ان يقرأ شروحاً للموسيقى العالمية كما انه ربما يجد بعض الصعوبات في فهم المصطلحات ، الا اننا سنحاول دائماً ان نلجأ الى التبسيط ما امكن وللقارىء ان يسأل المجلة عن اية صعوبة تعترضه في هذا المجال .

الحركة الثانية : سريعة جداً

كانت الحركة الاولى تمثل ، في ترددها وتوجها، طفولة الكون سديماً أولياً ، لاصورة له ولابنيان ، ينزع الى التشكل والتعين ضمن ارادة غامضـة هي أشبه بغريزة الحيـاة الابتدائية منها الوعي والادراك الذاتي . ولكن بالمقـابل كما أن هذا التردد واللاتعين يؤلف كل بداية لكون ينحو نحو التحقق والعيان ، كذلك فأن البداية ذاتها تحمل صورة فقيرة أشبه شيء بالمخطط الكلي ، لما يمكن ان يتحول وينمو الى واقع كثيف مليء بالتفاصيل ، غاص باللونيات ، كالحياة التي كلما زاد ارتقاؤها كلما تعقدت صورتها وتباينت انواعها ضمن الوحدة الغنية ... في سديم البداية تنطلق الالحان من وحدة ظاهرة ، ولكنها فقيرة غير ذات مضمون مشخص ، وهي في تطورها تسعى نحو الاغتناء والبروز المجسم .

ولعل الحركة الثانية هذه ، تؤلف مرحلة واضحـة نحو التعين . وهي تكاد تضم جميع عناصر الالحان الاساسية للسمفونية كلها ، بصورة مجردة ، ايمائية وليست بيانية ، متداخلة تداخلاً عضوياً غير موضحة في امتدادها . اي ان طابع الخلق السريع الكمي هو الذي يستغرق الملامح الكيفية ، ويمحي الفروق الشخصية للألحان . ثم ان عماد هذه الحركة يكاد يكون عماد الحركة الرابعة ، ذروة السمفونية . بل أن شبح اللحن الاساسي للحركة الرابعة ، هو الذي يسيطر على نمو الحركة الثانية كلها تقريباً . فنحن نلاحظ ميزتين غريبتين لهذه الحركة :

– أولاهما : أن الحركة هذه تكاد تجمع مخططات الحان السمفونية كلها ، الاساسية طبعاً ولكن هذا الجمع متداخل يتسم بنوع من الابتسار والايجاز الى حد الاشارة السريعة . والالحان تتدافع كمياً دون أن تتمايز كيفياً كأنها بذور كلها الزهرة واحدة ما أينعت بعد .

– ثانيهما : رغم أن الحركة الثانية تلخص السمفونية كلها من جمعها لمخططات الحانها الاساسية الا انها تكاد تتبلور جميع اصواتها دون أن تتبلور حقاً ، حول شبح اللحن الرئيسي للحركة الرابعة ..

فماذا يعني بتهوفن اذن بهذه الحركة الثانية بخاصتيها هاتين .؟

ان جواب هذا السؤال تكون بالعودة الى مذهبيـة بتهوفن العامة ، تلك التي يصفها النقاد بأنها رومانسية قائمة على أسس كلاسية .

لقد استبدل بتهوفن قانون الوحدة النظرية الرياضية التي كانت تقيم التوازن دائماً بـين أجزاء العمل الموسيقي في الكلاسية المنصرمة ، استبدلها بالوحدة النفسية الوجودية ، بالوحدة المشخصة الفردة ... نقل الوحدة من اللاهوية المجردة ، الى الفرد المعاني ضمن شروطه الشخصية ، وضمن واقعه الحي الخاص .

ان نقطة الارتكاز لم تعد لحناً متوازناً جداً ، بل خلية اولية تمثل الوحدة العضوية التي ستتمايز وتتغاير من داخل وتتسع حتى تشمل وحدة الجسد كله بكل تعقيده وتفاصيله . والحركة الثانية هي في الواقع خلية السمفونية التاسعة كلها .. الخليـــة العضوية الاولى التي ستنبثق عنها امتدادات العمل وتطوراته الفنية المتغايرة ، دون أن تفقد وحدتها الحية الاولى من داخلها.

الحركة الثالثة : بطيئة هادئة (أداجيو Adagio)

يثير الشراح حول هذه الحركة مشكلة فنية فيرى بعضهم ان اللحن الرئيسي للحركة ، أو مخططها الفني يمت بصلة الى مؤلف آخر من نوع الرباعي وهو الرباعي الثاني عشر ، وهو ما كان أبدعه بيتهوفن قبل شروعه في العمل لهذه السمفونية .

وعلى كل حال فان مكان الاداجيو من هذه السمفونية التاسعة يكاد يكون طبيعياً ، كما ان جوه التعبيري منسجم تماماً مع الجو العام للسمفونية .

فالحركة الاولى ساوقت بين طرفي المشكلة التعبيرية ، اي الذات والموضوع ، في مرحلة سديمية ، شبه مغلقة لولا الارادة الطفلة التي كانت توجه عمقية الحركة نحو التعين . وجاءت الحركة الثانية تعطي التشكل العضوي الاوضح بالنسبة لشخصية السمفونية . ويكاد يعالج هذا الاعطاء موضوعياً خارجياً ، أي ان الحركة الثانية هي تشخص خارجي .

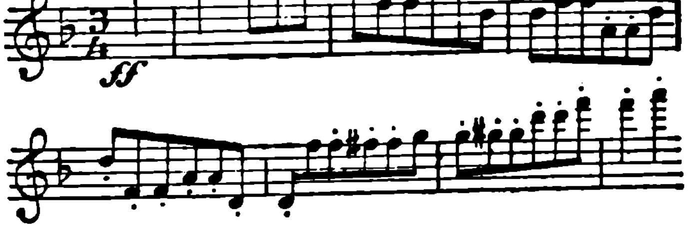
وتأتي حركة الاداجيو الثالثة هذه ، كما في كل بناء سمفوني ، فتدخلنا في عالم الذات . وتلك هي مرحلة عالية في تطور التشكل ، اذ يبرز هنا عنصر الوعي كعامل اساسي . ولكنه وعي صوفي ، يغرق في التأمل المظلل ، ويبدأ بتأكيد عمقية الحياة الداخلية . فالحركة الثانية كانت الخلية الاولى العضوية لكيان السمفونية . والحركة الثالثة تؤلف وجدان السمفونية ان صح التعبير ، أي روحها الانسانية ، وقد أخذت في التمركز حول حساسيتها الدرامية الخاصة .

ان بتهوفن يجمع في الحركة الثالثة خبرة الصنعة العالية في تنمية الالحان واشتقاق صورها من بعضها ، الى عمق الجوالفني. فتكاد الحركة كلهـــا تعتمد على لحن رئيسي واحد . وهو لوضوحه وغناه الخام ، واستجابته الكامـــلة العضوية لهدف الحركة وطبيعتها ، أمد بتهوفن بتغيرات لاتتناهى ، تنسج أصداءها وتحيك أجواءها ، وتترامى الى أبعد الآفاق تارة ، والى أعمقها وأروعها تارة ثانية ، والى أرقهـــا واعذبها تارة اخرى .. وهنا يتسامى التأمل ، وتتظلل السمفونية كلها في أروقة الخشوع والحنو ، كأن حركة الاداجيو هذه اعتراف طويل صامت بين النفس وخشوعها السري . انها رؤية داخلية خالصة تتكشف فيها ذات الفنان عن سويداء رهيبة ، ولكنها تتفاعل على مدارج التموج الشعوري واللاشعوري للمبدع ، لتوحي باغنى لونيات الذات المفردة . وموجة اثر موجة ، وذروة تلو هوة ، ورعشة حنون بعد صرخة يأس إلهي .. تتضح معالم الحركة ، دون أن تتضح . ويخرج المستمع من خضمها ، ودوي الخضم وعمقه اللامتناهي الابدي ، يظل يرن في غور نفسه بتلك النغمة من السويداء واليأس والبطولة والتوحد العبقري .. والحب المطلق .

الحركة الرابعة الغنائية ـ سريعة

ان الانتقال من الحركة الثالثة الى الرابعة يحمـــل الى المستمع الشعور بالتناقض والمفاجأة ، فالسرعة اخذت ذروتها بمقابل الهدوء في الحركة السابقة ، كما ان بين الحركتين تعاكساً في الايقاع والهارموني والطابع النغمي . كل ذلك يعد المستمع الى الغوص في جو جديد .. هكذا لأول وهلة .. ولكن كلما تقدمت الحركة ، كلما شعر المستمع بالالفة بين اصداء الحركات السابقة وبين الحان الحركة الغنائية ، حتى يثق في النهاية أنه عاش فعلاً في وحدة انفعال نمت من الخلية وحملت فرديتها الخاصة خلال كل تطوراتها وتموجاتها اللحنية والايقاعية والهارمونية .

تبدأ الحركة بعزف من الخشبيات (الآلات الخشبية ، مع آلات النفير والترومبيت) فوق امتداد صوتي من آلات الباصون ، والكونترباصون ، والكور ، ونقرات حادة من التمبالة (الصنوج الكبيرة) ، فتقبض بعنف على الجملة الموسيقية السابقة للغناء ، بمقيـــاس زمني سريع (٣/٤) ، تستمر ثمانية فواصل ، تستقطب حواس المستمع بدراميتها وقوتها . وفيها تعود الى الظهور مسافات الخماسية والرباعية ، بترداد معبر ، هذه المسافات الصوتية التي كانت الاساس للحن الموجه الرئيسي في الحركتين الاولى والثانية .



ثم تعزف آلات الباص بشكل القائي ضمن ثمانية فواصل كذلك . وتلك هي طريقة خاصة يلجأ اليها بتهوفن في كثير من اعماله مثلا السونات ذات الرقم (٣١) من اعماله —



ثم يتكرر المدخل الايقاعي ، كما في مقطع من افتتاحية (فيدليو) بين اللحن السابق للغناء في سرده الهارموني ، وبين العزف الالقائي لآلات الباص. وبعد ذلك تعرض الاوركسترا كلها بعذوبة الفواصل الثمانية الاولى للحركة الاولى . وتتبادل الاوركسترا الحوار في الفاصلين الاولين من الثمانية . غير ان اللحن الالقائي يقاطعها ولكن بقسوة اضعف من المبدأ . ومع ذلك فانه يكتسب الآن ، رغم عدم وضوح طابعه النغمي ، انسيابه غيرالهارموني (اي العزف المجمرعي) ، بلهجة مضطربة تحمل سؤالاً وضراعة . وتلك هي بداية الملحمة الانسانية التي سيظفر في محصلتها الوجودية الفرح .. ليس هذا الشعورالنفسي السطحي ، ولكنه الفرح الميتاميزيقي الشامل الذي يعلن عن نصر الانسان وحريته وسلامه .

ان هـذا التساؤل والرجاء ، انما يشير الى نوع من القلق يعاود نفس المبدع ، فهو مازال يساوره الشك في ايجابية الصراع . . هذا الصراع في الخلق منذان بدأ الانسان يعي حريته ويقدر امكانياته ، ويتحدى اقداره ، قدر الموت والتعب في الجسد ، قدر الجماعة الوحشية المبهمة من بني جنسه المحيطة به تسد عليه حواسه وتضغط وجوده ضمن حدود جسده ، قدر المجهول في الطبيعة ، قدر المصير في التاريخ ، قدر المطلق .. المبهم المطلق الذي يعمر سوادوية الفنان وينطلق منه الى ابعد آفاق السكون. ومع ذلك فقد آن للانسان ان يفرح ، آن له ان ينتصر على شكل يتبدى به قدر الاستعبادوالمجهول ، والظروف الاجتماعية السلبية ، وتحدى الواقع المتمزق لمثالية الفنان الخالق .

وتجيب الاوركسترا على الحوار واللحن السابق بموضوعة جديدة هادئة الطابع النغمي ، اعرض من خلال السداسيات ثم الثلاثيات من قبل الآلات الخشبية . وتتلو مرحلة من العزف المجموعي تقطعه بعض التوكيبات الهارمونية ، ينتهي ببلاغة المغني الذي اعلن لازمنه الاصلية ثم انطلق الآن يتابعهـــا في تغيراتها اللحنية .

وتندفع مجتمعة آلات التشيلو والكونترباص ، مكشوفة وبمهابة جليلة ، لتعزف اللحن الاساسي العظيم لانشودة الفرح وقد ارتفع بها صوت ضخم انساني رهيب معلنا الفتح العظيم في عالم الموسيقى والتعبير وهو اجتماع الاوركسترا الآلية والحنجرة الانسانية في اعلى درجات التجريد الموسيقي : السمفونية .



وخلال اربع وعشرين فاصلة تتوالى مجموعات الاوركسترا في عزف هذا النغم الرائع الذي دعاه فاغنر فيما بعد (لحن الاله الطيب) . وهو لحن ينضح عذوبة ، ويجمع الى الطلاوة ووضوح شخصيته عمقاً يكسبه خشوعاً صوفياً .

ولقد اختلف النقاد طويلا حول اصل هذا اللحن فمنهم من ارجعه الى اغنية شعبية روسية او المانية . ومنهم وهو فاسليفسكي ، اكتشف ظلا له في اغنية لبتهوفن ذاته ، رقمها من أعماله ٨٣ .

ويرجع اللحن السابق على الغناء ، المجهد ، ليتفجر هادراً من قبل الاوركسترا مجموعة . وتغني الاصوات الانسانية اللحن الالقائي التابع للأول وبعد ذلك تستأثر الآلات الخشبية باللحن الموجه الثاني ذي الرقم (٢٩٩) الذي يصبح بدوره الموضوعـــة الاساسية لانشودة الفرح . وتشترك الاصوات الانسانيـــة والآلات في تردداه وانشاد صور تغيراتــــه المختلفة . ويتبع هذا الشكل الاول للتطور النامي تغير جديد لموضوعة الفرح بوزن زمني هو (٦/٨) سريع ونغمه (سي بيمول) ، ذوإيقاع عسكري ، تتضح فيه ضربات الصنوج . تعرضه اولا الاوركسترا وحدها ثم ينشده صوت التنور وحده وتضاف اليه فيما بعد بقية الجوقة . ويلي ذلك تشابك في التطورات اللحنية ، تلتحم ضمن حركات متعاكسة في صراع خصمي ، تقطعه بعض فترات الصمت المعلقة ـ العزيزة على بتهوفن دائماً ـ التي تعد لتفجر آخر من انشودة الفرح وقد

تغير النغم الى (ره ماجور) على ايقاع ٦/٨ من التطور ، وذلك من قبل الاوركسترا كلها .

وبعد نقطة صدى طويلة تأتي مرحلة هادئة عذبة بوزن ٣/٤ ، فتشترك أصوات التنور والباص مع الكمان والتشيلو والكونترباص بمقدمة لحنية لتعلن اتحاد البشرية في معجزة القبلة الواحدة التي تحيي انتصار الفرح : وينادي المنشدون حينئذ :

لتتحد أيها الجنس البشري

في قبلة واحده رائعة ..

تلك هي العبادة الاعمق التي يصل اليها تطور وعي الانسان ان يري الحقيقة في ذاته ، والوحدة هنا ماهي الا رمز للحرية التي اكتسبها تاريخ الالم والصراع ضد المصير المجهول .

ولا يمكننا نحن ان نتابع جميع التفاصيل الفنية لعرض هذه الحركة في حدود هذا المقال . وانما نكتفي بالاشارة الى ان اعظم أثر موسيقي مطلق ، هو السمفونية التاسعة ، لا يمكن للشرح النظري ان يحيط بغناه الابداعي ، ولذلك دعى احد كبار اساتذة الموسيقى الى ان نستمر في الاستماع الى هذه السمفونية وخاصة حركتها الاخيرة مرة تلو مرة ، ولنرجع بعد كل مرة الى حياة بتهوفن والى حياة الموسيقى والى حياة الانسانية من خلال تطورها الروحي ، لندرك اعظم فأعظم كل هذا المركب الرائع : بتهوفن ، الموسيقى ، الانسانية . ولابد اننا في كل مرة سنكتشف عمقاً جديداً ، ومنحن آخر ندرك فيه عمق التجربة الابداعية الفردية عندما تتحد مع التجربة المطلقة لتاريخ بكامله . ان الحركة الاخيرة للسمفونية التاسعة كما يقول (شانتافوان) ، ليست هي نتيجة لسمفونية فقط انها محصول انتاج بتمامه ، كما هي محصول حياة وفن قائم بذاته ولذلك كان من غير المعقول ان يعتقد بعض الموسيقيين الاخرين ان هذه الحركة هي نموذج يحتذى في التقليد ، فجاءت محاولات غوستاف ماهلر عقيمة فقيرة عندما اراد ان يستعمل الاصوات الانسانية في سمفونياته . وعندما حاول كذلك سيزار فرانك ان يستعمل الاسلوب الفني لهذه الحركة في رباعيته ، فيسعى الى ان يردد جميع الموضوعات السابقة في الحركات الثلاث ، ضمن عرض الحركة الاخيرة كما فعل بتهوفن ، ولم يدر هؤلاء ان بتهوفن ما كان يعطي نموذجاً للتقليد ، وانما كان يعطي ذاته التي لا تتكرر[1] .

التحرير الخاص

(١) المراجع: Chontavoine , Kurt Pahlen , Leibowitz

— في العدد القادم سنقدم عبقرية الموسيقى الشعبية القومية الفنان : بيلا بارتوك

القومية العربية
حقيقتها ومحتواها

بقلم

نهاد الغادري

لقد كانت القومية، كظاهرة تاريخية، موضع بحث طويل. فقد تناولها الكتاب والمثقفون بالبحث والكتابة، وأثاروا حولها الكثير من الجدل والمناقشة، دون ان يصلوا فيها الى تعريف ثابت، لانهم وجدوا حالات قد تتشابه، ولكنها قد تختلف أيضاً وتفترق. فلكل قومية شروطها الخاصة بها، مما يجعل دراستها مستقلة عن القوميات الاخرى، أمراً لابد منه للوصول الى تحديد علمي لها، ومعرفة مقوماتها واهدافها، حقيقتها ومحتواها.

على انه مما لاشك فيه، ان كثيراً من الغلط في مناقشة موضوع القومية، مرده الى ان للقومية جانبين للبحث، لايفرق بينها الكتاب والمثقفون عادة.

فهي من جهة، حقيقة موضوعية لها مقومات تلتقي فيها القوميات بشكل عام، ويمكن تعريفها. وهي من جهة اخرى، شعار تنضوي تحته شعارات، يناضل شعب ما لتحقيقها. ولقد تختلف مابين قومية وقومية، وتفترق. وقد يبلغ مابينها من الاختلاف والافتراق، مابين أبعد المتناقضات.

فبينما تتجه قومية، مثلاً، الى الفتح والغلبة، تتجه قومية اخرى الى الاستقلال والحرية.

فما هو الجانب الموضوعي من القومية، الذي تلتقي فيه القوميات جميعاً، وكيف تختلف القومية، في محتواها وأهدافها، ما بين شعب وشعب.. ولماذا كانت كلمة القومية حين ترادف الشعب الالماني، أو الفرنسي، تعني شيئاً مختلفاً، بل متناقضاً، مما تعنيه حين ترادف الشعب العربي؟

يعتقد الكثير، ممن يناقشون اليوم موضوع القومية، أو يكتبون فيه، ان القومية، في تعريفها العلمي، تعني الامة وهو اعتقاد مخطىء، وتعريف مغلوط، لا يتفق وواقع القوميات.

فالامة مفهوم تاريخي حديث، نشأ مع تصفية نظام الاقطاع، ونمو الرأسمالية. ومقوماتها هي وحدة اللغة والارض والمعيشة والتاريخ والثقافة.

أما القومية، فانها جزء من الامة، كان لها مقومات الامة في فترة من التاريخ، ولكن ليس ضرورياً ان تكون قد بقيت هذه المقومات جميعاً، فقد تفقد القومية وحدة الارض والمعيشة، وتبقى بعد ذلك.

فالارمن الذين يعيشون في بلادنا اليوم، مثلا، كانت لهم مقومات الامة.. كانوا يعيشون على أرض واحدة، وكانت لهم لغتهم الواحدة، وثقافتهم الواحدة، ومعيشتهم الواحدة وتاريخهم الواحد. فلما ألمت بهم النكبة، ولجأ بعضهم الى بلدان مختلفة، فقد وحدة الارض والمعيشة، ولكنه احتفظ بطابعه القومي، وما يزال محتفظاً به، لانه حافظ على وحدة اللغة والثقافة والتاريخ، وبقيت له بذلك خصائصه النفسية.

وكذلك الامر، بالنسبة للاقليات القومية التي تعيش خارج حدودها التاريخية.

فالقومية اذن ليست الامة. وانما هي الحدود الواضحة القائمة حيناً آخر، مابين شعب وشعب. ومقوماتها هي اللغة الواحدة، والتاريخ الواحد، والثقافة الواحدة، والخصائص النفسية المميزة. فهذه العناصر الاساسية هي التي تعطي لهذا الشعب او ذاك، لهذه الامة. او تلك، سماتها الخاصة، وقوابتها، التي نعبر عنها بالقومية.

فبغير اللغة، لا توجد القومية. لان اللغة، في الاصل، طريقة مشتركة في التصور والاحساس، تنشأ منها الثقافة المشتركة، ويأخذ بها الشعب طابعه الخاص وتكوينه النفسي.

وبغير التاريخ، لايمكن ان توجد الثقافة واللغة، فلا بد للجماعة البشرية من تاريخ تشترك فيه باللغة وتتكون لها خلاله الثقافة المشتركة، والعادات والتقاليد، وتأخذ منها خصائصها المميزة وسماتها.

وثمة خطأ آخر يقع فيه بعض الذين يكتبون او يناقشون موضوع القومية. فلقد يرون ان القومية تعني الدولة. فاذا كانت كذلك، فماذا نقول في دولة كالصين يعيش فيها اليوم اكثر من ستين قومية؟ وماذا نقول في القومية العربية، المجزأة الى دول يفصل ما بينها كل ما يفصل بين الدول المستقلة من حدود، وأنظمة، وقوانين؟

على ان التقاء القوميات جميعاً في مقوماتها الاساسية، يقابله اختلافها وافتراقها في محتواها السياسي، وفي اهدافها وشعاراتها

فالقوميات الاوربية، وليدة القرن التاسع عشر، تفترق اهدافها، ويختلف محتواها، من القوميات الآسيوية والافريقية التي بدأت تتجه الى استكمال اسباب وجودها في القرن

العشرين .

فقد كان هدفَ القومية الالمانية ، مثلا ، ايجـــاد السوق لصناعتها النامية ، وانتاجها المكدس، ولذلك حملت روح الحقد للشعوب ، والشعور بالامتياز والتفوق ، والرغبة في الفتح والاحتلال . وكذلك القومية الفرنسية .

في حين ان هدف القومية العربية هو توحيد النضال ضد الاحتلال والنفوذ الاجنبي، وضد التخلف ، فهي لذلك ،تحمل على النقيض من تلك ، روح الحقد للاستعمار ، وروح الحب للشعوب ، والشعور بالاخاء والمساواة .

ويرجع اختلاف المحتوى السياسي،و لاهداف والشعارات مابين قوميات أوربا وقوميات آسيا ، الى اسباب كثيرة ملموسة منها ، تغير الظروف التاريخية بين قرنين .

ومنها التطور الهائل في الاوضاع ، والنظم الاقتصادية والسياسية ، والتقدم العلمي والتكنيكي الذي تمخض عنه القرن العشرون ، وغير الكثير من ظروف الحياة وشروطها المادية .

ومنها ثورات التحرر الوطني ، التي أدت الى زعزعة قواعد الاستعمار ، الذي كان مصاحباً للقوميات الاوربية ، وانتهت هذه الثورات الى قيام أوضاع عالمية جديدة .

ومنها انتصار الاشتراكية في عدد من البلدان ، وسيادة افكارها في عدد آخر .

كل هذا ،قد ترك اثره المباشر ،وغير المباشر ، في الحركات القومية في هذا القرن ، مما جعلها تختلف اختلافاً اساسياً عن قوميات أ،وربا في القرن الماضي ، ويختلف بالتالي معها ، معنى الكلمة ومدلولها .

وليس هذا فحسب . فان بين القوميات الاوربية نفسها ، في القرن التاسع عشر. اختلافاً يميزمحتوى هذه القومية من تلك وأهدافها . كما هو الحال بالنسبة للقوميات الاسيوية والافريقية في القرن العشرين . فلكل قومية علاماتها المميزة ، الى جانب النقاط المشتركة مع القوميات الاخرى ، في مرحلة تاريخيه معينة

ومن هنا ، كانت دراسة القومية العربية ، في حيقتها ومحتواها، ضمن شروطها وظروفها الخاصة بهـا ، وعلاماتها المميزة ، امراً محتوماً ، اذا اردنا انتخرج من الدراسة بفهم موضوعي للقومية العربية .

ولقد سبق القول بأن القومية ، كحقيقة موضوعية ، هي جزء من الامة ، وليست الامة ، وانها تعني وحدة اللغة والثقافة والتاريخ ، والخصائص النفسية ، ولا يشترط فيها اطراد وحدة الارض والمعيشة، الضرورية للأمة، كما هو الحال بالنسبة للأقليات القومية التي تعيش خارج ارضها التاريخية .

فالقومية العربية ، كحقيقة موضوعية ، تعني اذن اللغـة العربية ، والتاريخ العربي بتراثه وتقاليده ، والخصائص النفسية العربية ، التي اكتسبها الشعب العربي خلال تاريخ طويل من الحياة المشتركة .

ولكن ، ماهو المحتوى السياسي للقومية العربية ، وماذا يراد ان تحقق لنا ؟

ماهو هدفها ، وماهي الشعارات التي تحتويها ؟

هنا تختلف القومية العربية عن القوميات الاوربية اختلافها الاساسي ، وتفترق عنها افتراقها البعيد .

فمحتوى القومية العربية، هو اليوم ، محتوى كفاح الجماهير العربية ، وهي تحمل كل اهداف هذا الكفاح ، وكل شعاراته..

ونحن اذا استطعنا ان نحدد هذه الاهداف والشعارات على وجه الدقة ، استطعنا ان نعرف محتوى القومية العربيـة السياسي واهدافها ، وماذا نريد منها :

ففي اي اتجاه تناضل الجماهير العربية ؟

لقد مزق الاستعمار الوطن العربي الى دويلات ، واقام على الحكم في كل منها، قوى وأدوات تسخر الحكم ؛ بالقوة لمصلحته، وتنتفع منه بنصيب ، لقاء مانؤدي له من خدمات .

والملاحظ ان نظم هـذه الدويلات ، واوضاعها متخلفة ، على تفاوت في نسبة هذا التخلف بين بلد عربي وبلد . ولابد لكي يتخلص الشعب من هذه النظم والاوضاع ، من القضاء على اسبابها وهي في عمومها وتفصيلها ترجع الى التجزئـة ، والى الاحتلال او النفوذ الاجنبي ، الذي يعوق تطور الشعب ، ويقف في طريق تقدمه فالشعب العربي يناضل من اجل وحدته السياسية . ومن اجل قيام حكم ديموقراطي يمثل ارادته ، ويحقق مصلحته ويقضي على الفساد والتخلف .

وقد نشأ وضع عالمي يحاول فيه الاستعمار ، لخشيته من ان تمزقه ثورة الشعوب ،تشديد قبضته على الشعوب ، وتوصيرجبهته في الصراع معها ، فهو يعد للحرب ضدها القواعد ، ويربط فيها

متى يطلع النجم ؟ اني ظمي

أفي الليل دربك ام في دمي

طريقك خط على محجري

فلو جئت قبلي لم يرسم !

خلقت فدب الهوى في العروق

وأج من الشوق في اعظمي

فــلم ار غيرك في ناظري

ولم اع غير الهوى في فمي

احسك في الظن انى استقر

فيوشك سرك ان يرتمي

الى ان يقول :

وفي الليل يلهو على ساعدي

فتزحم انجمــه انجمــي

وفي الجفن يشرق بالذكريات

فيطبق فــوق غد مبهم

فأنت هنا منذ كان الوجود

وانت هنا قبل ان تعلمي

جبين يكللــني بالخلود

وهدب يهــل له موسمي

وحلم ابوح بــه للنجوم

فاسمــع أنتهـا في دمي

وقد اذكرني موقف شاعرنا عمر ، بالحلاج المتصوف ، في موقفه البارع حيال من احب ، وقوله يصف هذا الموقف ، معبراً عن وحدة هواه :

قال لي المحبوب لما زرته

من ببابي : قلت : بالباب انا

قال لي : انكرت توحيد الهوى

حينما فرقت فــيما بيننـا

ومضى عام ، فلما جئته ..

اطرق البـاب عليه موهنا

قال لي : من انت ؟ قلت : انظر فما

ثم بالباب سوى انت هنا

قال لي : ادركت توحيد الهوى

وعرفت الحب .. فادخل يا انا

وحسبنا من تشابه هذين الموقفين ، هذا البيت الذي استقطب فيه شاعرنا ـ ليشفي مــافي نفسه من ظمأ ـ فورة احساسه بوحدانية حبيبته في عالمه الذي يضطرب فيه ، وتمييزها على سواها ممن يلقاهن في دربه :

فـلم أر غـيرك في ناظري

ولم اع غير الهوى في فمي

فكأني به في هذا البيت قد طبق شرطاً من شروط العشق الاول « الذي تتميز ـ كما يقول العقاد ـ للعاشق شخصية واحدة بين جميع الشخصيات التي يراها .. فهو يحل « المشخصات » لفرد من افراد الجنس ، في محل اعلى وارفع من الصفات التي تعم بجسنها كل من اتصف بها ، ويرجع هذا التمييز الى اسباب كثيرة لاتقتصر على استحسان الجمال : منها تقارب العواطف ، ومنها المصادفة التي تجمع بين العاشقين في احوال مهيأة للتعلق والالتفات ، ثم للالفة والهيام ، ومنها احساس النقص في العاشق وما يتممه من مزايا المعشوق ، ومنها قدرة المعشوق على اعزاز مكانته في قلب العاشق » .

ولعل ابرز ماحملنا على تقدير موقف الشاعر من حبيبته ، ونظرته الصادقة اليها ، هو فهمه ـ كفنان ـ نفسية المرأة والروح التي تنساب خلال خطوط حياتها ، وتعطيها معناها الحقيقي .. ثم اتجاهه بنوع من المشاركة الوجدانية التي تتسع لها حياة كل فنان اصيل ، ويركز عليها شعوره ، ثم فهمه المرأة بانها مخلوق حل فيه قبس من صفات الخالق ، لايمكننا ان نستعيد سعادتنا ان لم نستضىء به .. ولقد تصور شاعرنا هذه الحقيقة بل عاشها ، ولذلك ترانا نلمح من خلال شعره معاينته الاقتراب من نفسية المرأة ، واحترامه شعورها ، وتقديره وظيفتها ، وتقبله لدورها ، ودرايته بمسؤوليتها في خدمة المجتمع والحياة ، بـل في ايجابيتها وتفتحها ، ومشاركتها النشاط الانساني ، وتحقيق السعادة التي ينشدها كل كائن .

وهذه النظرة او هذا الموقف الانساني الخالي من العنف والخشونة لايتأتى الا لاصحاب القلوب الكبيرة والعقول الواعية المثقفة التي تكبر من شأن القيم الاجتماعية ، وتدرك بحدسها ماجبلت عليه المرأة من انبساطية يحتاج اليها المجتمع ، ولا تستقيم بدونها الحياة .

ويبدو ان تجربة الشاعر مع المرأة تجربة متفتحة كاملة لاحتوائها على لحظات جميلة رائعة يتغنى بها الشاعر ، ولئن شاب هذه اللحظات بعض المرار وخيبة الامل غيران المرأة تتكشف من خلالها مثقفة تكاد تكون صنو الرجل في ثقافته او هي صنوه فعلاً . اذ تفرض عليه الشعور بان في وسعها مشاركته

حياته الفكرية وتذوقه الفني . واننا لنلمح هذا الارتفاع الذي تسمو اليه المرأة في اختباراتها الفنية من مضمون قصيدته « كنا غرباء » التي يعتز بها الشاعر ايما اعتزاز ، حيث يصور لنا الشاعر ذهابه واياها للاوبرا وسماعها وهي متكئة على ساعديه « قصة فتى عثر » ويروي لنا كيف خاف جفناها ما اسرّ به الممثلون والمغنون . وخافا ماعبروا به من احداث القصة ووقائعها . ولانجد لهجة التعالي الا في مقاطع صغيرة من قصيدتيه « انت لي » و « نهاية درب » ثم في قصيدته « نشيد الانشاد » التي تصور علاقة معينة ، هي علاقة انسان حساس بامرأة لها ماض لم يشاركها فيه .

وثمة موقف يومىء الى مبلغ الحاح الحب على قلب الشاعر ، وعلى صفاء هذا الحب ونقائه وعذوبته ورقته وطهره ، وكل هذه الصفات تهيب بالشاعر ان ينظر الى الحبيبة نظرة الاخ الى اخته وان يحرص على ان يمهر علاقته بحبيبته بطهر الحب ذاته وبراءته وعذريته ... ونداءاته لحبيبته التي ضمنها قصيدته الرائعة «هي» تفيض بألق هذه النداءات الحلوة ، وتزخر بهذا التوسل الممزوج بالرعشة الخجلى التي تأخذ الشاعر في كل هتاف يرسله ، عسى ان يبلغ سمع الحبيبة الاخت ، فيدخل قلبها ، وتأبه له ، فتضمد الجراح المندملة التي نكأها هجرها ..

فلنستمع اليه يلح في نداءاته التي عصفت بها فورة قلبه المجروح :

تباركت ياأخت ! لولم احب
اكنت اطيق الوجود القلق

وقوله :

تباركت ياأخت ! لولم أحب
اكنت أطيق السراب الارق

وقوله :

تباركت ياأخت ! مالي أحس
كأن الندى في يدي احترق

وقوله :

أأختاه ! كيف نطيق الفراق
ونترك أحـــلامنا تهرم

واخال أن لهذه المباركة ـ عند الشاعر ـ دلالتها الواضحة ولها عطاؤها فهي الى جانب تخفيفها مما الم به من تباريح الهوى العف ، والى جانب عصف الالم بقلبه من هجر حبيبته ، والى جانب استرجاعه ما افتقد من مشاركة وجدانية .. ثمة جانب آخر يكشف عن وعيه نفسية المرأة ، وتوكيده اعجابه بها ، واحترامه مشاعرها ، واحاسيسها وادراكه مايجول في صدرها من اعتزاز ، ومايخفق به قلبها من طموح الى تحرير ذاتها ، ومحو المظالم الاجتماعية التي تحيق بها وتفرض عليها .. كما تعني هذه « المباركة » كذلك ان حبيبة الشاعر لم تبعث في روحه الحب ولم تؤجج قلبه بالفتنة ، ولم تذهب بروحه وتخلب لبه ثم لاتلبث ان تعرض عنه ، وتمنحه الجفاء والصدود فحسب ، بل كانت تبعث فيه معاني الحب السامية ، وتغمره بمعاني الجهاد والخلق ايضاً « ويقيني ان المرأة التي تبعث في الرجل معاني الحب والجهاد والخلق مجتمعة هي المرأة الجديرة ببعث اسمى مشاعر الجمال الروحيه التي يرنو اليها الانسان المفكر والفنان .. ذلك ان الجمال الحسي يضمحل ان لم يسيج بسياج من التقدير الروحي ، ومن اجل ذلك فلكي تكون المرأة عنصراً جمالياً للرجل ـ لاسيما للفنان ـ ينبغي ان تجتمع عندها العناصر الباعثة على الجمال في الفكر والروح وذلك ببعث معاني الحب والجهاد والابداع » .

والحق ان قلب شاعرنا يضطرب بالحب والجهاد والابداع ويصطخب بما تشيع فيه هذه المعاني من قوة شعور بامتلاك الوجود ، وبعنف في الصمود امام اليأس ، وعدم الاذعان له والفرق منه ، وهذه قصيدته « الى الابد » التي يدعو فيها حبيبته ضارعاً قد استقطبت جل هذه المعاني الحية :

أقبلي تزدحم الاحراج بالورد وتشرق
واخطري ينهمر الطيب على الدرب ويهرق
أي زهو يهب الارض هوانا .. اي رونق
خطرت اقدامنا امس على الصخر فأورق
وارتمى الطير على راحاتنا البيض وصفق
كذب الناس ! فلن نعنو لليأس ونفرق
نحن اقوى منه ياأخت على الصبر واصدق
فلنا الغاب ومافي الغاب من طيب معتق
ولنا الطير اذا غرد في الايك وزقزق
ولنا النجم اذا ضوأ في الليل واشرق
ولنا الغيم الذي يشرد في الافق ويأبق
ولنا الحب الذي يهزأ باليأس المغلق
ولنا اقصوصة تسرد في الحقل وتطلق
ينصت الليل لها والحرج والسفح المزوق

والآن .. لنطرح هذه الاسئلة : لماذا خيبت « الحبيبة الاخت » التي رأيناها تثير وجدان الشاعر ، وتملأ حسه وخياله وذهنه امله ؟؟. ماعذرها في هذه المغالاة في الهجر والصدود ؟

ثم ما التفسير النفسي لهذا السلوك المفاجىء الذي ادى الى خيبة الشاعر في حبه ؟؟..

اثمة تناقض بيّن ، او تباعد بين عاطفتيهما ؟

اثمة عاطفة ولدت وعاشت حية ، وعاطفة ولدت فماتت موؤدة ؟؟

ان ديوان الشاعر الاول « كانت لنا ايام » وبعض قصائد من ديوانه الجديد « الليل في الدروب » يحملان فعل هذه التجربة ! .

فالحبيبة – في رأينا – اضطرت مرغمة تحت ضغط تقاليد اجتماعية بالية ، وظروف راهنة ، لأن تسلك هذا السلوك الوجداني الذي يرمز الى غلبة التفكير الموضوعي على العاطفة الطارئة ، وهذا السلوك الذي نتج منأت ولاريب من الانعكاسات اوردود الفعل التي عانتها الحبيبة من تأثير هذا الضغط الذي تتلقاه من مجتمعها . وهو مالم يلتفت اليه الشاعر الحبيب في حينه ، ولم يحفل به ، بالرغم من امتلاكه وعياً اخلاقياً حيال من احب .

ومرد ذلك – كما يخيل الينا – الى ان تجربته التي عاناها في حبه اقوى من تجاربه التي عاناها في الحياة ، ولذلك اخفق في حبه . فتحول هذا الاخفاق الى لحظات من التأمل الروحي .. وكان ان هز هذا التحول عاطفة الشاعر هزاً عنيفاً تحركت فيه هذه الشحنات الوجدانية التي اضفاها الاخفاق – الذي ظل يشغل ذهنه – على اغلب شعره الذي غناه في بدء مراهقته .. وكان ان طبع بطابع الحزن والحنين والانين ، وظل عالم قصائده ، عالماً داخلياً بحتاً يختزن اللحظات الشعورية التي مرت به ، ثم يقيم نتاجه الشعري عليها ..

ولذلك جاء هذا النتاج من حيث بلورة تجربة الفشل فيه عميقاً في تصوير هذا الفشل الذي عاناه الشاعر ، دقيقاً في رسم الازمة التي عاشها .. ولذلك كان الخلق الشعري في ديوانه « كانت لنا ايام » .. باعتباره صدى مباشراً للنفس – احلاماً ورؤى واخيلة وعذاباً ودموعاً وتوسلا وضراعة .. ثم حباً نقياً صافياً فيه صبابة حزينة وفيه هوى متأجج مشبوب ..

وكان الخلق الشعري في ديوانه « الليل في الدروب » يقظة ونضجاً عقلياً مكتملا ، وان شاب هذا الخلق بعض رؤى واحلام ما انفكت تلح على الشاعر لانه ظل صادقاً في شعوره ولانه يستعيد كذلك تجربة حبه ، اي تجربته هو ..

ولئن درج في ديوانه الاول « كانت لنا ايام » على مخاطبة عواطفنا من خلال مخاطبته حبيبته ، فقد راح في ديوانه الثاني « الليل في الدروب » يخاطب عواطفنا وعقولنا كذلك ..

لقد ايقظت شعور الشاعر في « كانت لنا ايام » عقبة كأداء ، هي الخيبة في الحب ، فكان اتجاهه العام التعبير عن هذه الحركة ذاتها ..

وصفا شعوره في « الليل في الدروب » ونمت مع هذا الصفاء رؤية عقلية واعية انضجتها الثقافة وعمقتها الحياة ، فكان اتجاهه العام تأملا في الحياة تأملا عقلياً مبعثه صفاء هذا الشعور ، ونمو الرؤية العقلية لدى الشاعر . .

سيداتي .. سادتي !.

لم ار شاعراً يثور على خيبته في حبه ثائره ، وتفور حماسته ، وتلتهب مشاعره كشاعرنا « الدكتور عمر النص » في قصيدته الرائعة « ماذا بقي » فقد تدافعت فيها قواه النفسية تدافعاً دائباً وبرزت فيها حياته الانفعالية بروزاً واضحاً .. كما وفق الشاعر في تفسير اثر هذه الخيبة في نفسه ، وتنبهه الدقيق اليهـا ، وها هو ذا يصرخ في مطلعها مستنجداً ، وقد اشتد خطبه وعظم كربه :

يا ظلام الأقدار ! رد صبايا
قبل ان تزهق الحياة يدايا
لاتقل لي افق ! فتلك عروقي
ينزف العمر فوقهن شظايا
اغداً يضفرون اشواك ايامي
ويلقون بالورود سوايا !
ويذيقون سالبي قدح الخلد
ويروون بالزعاف صدايا
اغداً يعقدون لي عقد اليأس
ويأبون ان اطول رؤايا
ويعبون من دمى فورة العمر
ويطوون في التراب هوايا
ويقولون ! فلتمت ! واراني
فوق درب معفرّ انعـايا
وهو فوق الغيوم : يلثمه الفجر
وتخضل في يديـه العشايا
واراه .. في النور شق خطاه
وانا في اللظى تدب خطايا !
جاء هذا الضري ! لم ادر اذجاء
ولكن رأيت فيـه ردايا

وهكذا نظل مشدودين بالجو النفسي اللاهب ، ذاهلين مما

« البقية على الصفحة ٦٦ »

منذ افترقنا

شعر

وهيب دياب

منذ افترقنا والزمان معطل في كل حين
وكأنه مل التقلب فاستحال الى سكون
أمسي الذي شيعته كفنته بأسى شجوني
وغدي الذي املته اسلمته ليدي ضنين
والعمر هذا العمر قفر في السنين بلا غصون
لازمت آكام الذرى وتغيمت حولي حزوني
وذكرت ايام الهوى فحرمت حتى من حنيني
وودت لو اني بكيت فما بكيت على شؤوني
غيضت في دموعي محاجرها فهل علمت عيوني
مزقت سفر الذكريات وقلت ياارض اذكريني
خلفت قلبي فوق تربك ثم عدت الى جفوني
ووأدت اناتي وقلت اخاف يبعثني انيني
ايعيش من غده السراب وامسه برد المعين ؟!
وحياته آل بلا ظل ووهم في الظنون
منذ افترقنا والزمان يغور في مائي وطيني

. . .

منذ افترقنا والزمان معطل ميت الحنان
وكأنه العدم السحيق فلا حدود ولا معاني
حقب بدها البقاء كأنها سحب الدخان
فيها الرتابة والفراغ وذلة تحكي هواني
وانا هنا منذ افترقنا لم ازل في ذا المكان
ارنو الى صرحي المهدم في الوجود وفي كياني
ارنو الى حلمي القتيل مكذباً فيه عياني
ارنو الى يومي الطويل مجرداً من كل آن
ارنو الى امسي الموسد في الثرى قبل الأوان
والى غدي المذبوح في خلدي وفي ظل الأماني
ارنو واسأل ياترى قدري العتي اما يراني ؟!
وأجيل طرفي في السماء فلا تجيب المقلتان
منذ افترقنا والزمان معطل ميت الجنان
اليوم دهر والدقائق فيه ترجيها الثواني
مات الزمان بخاطري مذ غاب طرفك عن زماني

وهيب دياب

قوت الأرض

عن اندريه جيد

تعريب

علي جبر

عندما تقرؤني ، ناتانايل ، القِ بكتابي واخرج ،
فأنا أريد منه ان يهبك الرغبة في الخروج ،
الخروج من أي مكان ، من مدينتك ، من عائلتك ، من غرفتك ، من فكرك
واياك ان تحمل كتابي معك ،
وليعلمك ان تهتم بنفسك اكثر من اهتمامك به .
وان تهتم بأي شيء آخر اكثر من اهتمامك بنفسك ،

...

لا تأمل يا ناتانابيل ان تجد الله في مكان ما بالذات ،
ان لم تجده في كل مكان .
كل مخلوق يدل على الاله الخالق
ولكن كائناً مابعينه لا يقوى على الكشف لنا عنه
وعندما يقف بصرنا المحدود عند مخلوق ما ،
فان كل كائن حي يصرفنا عندها عن الله

...

نحن نعتقد جميعاً بأن علينا اكتشاف الاله .
ولكننا وا أسفاه، لا نعرف
.. ونحن نلتمس وجوده
الى اين يجب ان نتوجه بصلواتنا .
وانت ناتانايل ، ستكون اشبه بمن يتبع لهداية نفسه ،
مصباحاً يمسك هو به بكلتا يديه ،
فانك انى ذهبت لن تصادف غير الله ،
فالله هو ما هو أمامنا حيثما توجهنا .

...



لقد سافرت كثيراً يا ناتانابيل ، وتجولت كثيراً ،
لأنسى كل ما كنت قد تعلمته من الكتب ،
ولا اكتمك ان تطوا في هذا كان أفيدلي من كل المعلومات التي كان يفرضها عليّ الآخرون .
ذلك انه كان — والحق يقال — بدء تربية طالما نشدتها
فاعلم ناتانابيل ان عدم تيقننا من الطريق التي نسلك ،
يعذب روحنا طوال الحياة .
بل ماذا عساني أقول لك : كل اختيار فهو رهيب ،
والحرية التي لا يقودها واجب ، فهي مخيفة ايضاً

...

لتكن الأهمية لنظرتك الخاصة ، لا للشيء المنظور .
فكل ماعندك من المعارف سيبقى متميزاً عنك الى الابد،
فلماذا تمنحه اذن قيمة كبرى؟
لقد ضنيت وجداً من اجل كثير من الاشياء اللذيذة
وكل حماسة كانت بالنسبة الي نوعا من ضنى الحب
من الفناء العذب.
سأعلمك الحماسة والغليان ،
لا الحكمة والتعاطف ،
وليملأ قلبك الحب دون ان تقلق لما تحب اهو خير ام شر
واعمل دون ان تحاكم سواء أكان العمل حسناً ام سيئاً .
لقد أوشكت أن أقصي من نفسي التعاطف اذ انني ،
لم أعد ارى فيه اكثر من اعتراف بانفعال مشترك .
اني لا ارجو يا ناتانايبل راحة اخرى غير راحة النوم الابدي.
ان اموت ولا أمل لي البتة وكل رغباتي قد اشبعت تماماً.

انا احب ياناتانابيل ان امنحك فرحاً جديداً ،
فرحاً لايهبك مثله أحد غيري ، ولااعرف كيف
اعطيكه ، ومع ذلك
فانا أملك هذا الفرح .
اني لأتوجه اليك بكل جوارحي ،
اريد ان اقترب منك وأن تحبني .
ولتعلم ان الكآبة ليست سوى حماسة متعثرة .
ان كل كائن خليق بالعراء ...
وكل انفعال جدير بالامتلاء ...
ان انفعالاتي متفتحة كتفتح دين جديد ،
فهل بمقدورك ان تفهم ان كل احساس ،
انما هو في حضور أبدي ???
اذن سأعلمك كيف تتأجج ناراً ونوراً
وتضطرم حماسة وسعيراً ...

. . .

ان اعمالنا تتعلق بنا كتعلق بريق الفوسفور بالفوسفور ،
حقاً انها تبلينا الا انها هي التي تهبنا الرونق والجلال .
واذا كان لروحنا قيمة مافلاحتراقها بسرعة وشدة .
فليست الحكمة والتعاطف ماأعلمك ناتانابيل بل الحماسة والحب ،
كل انسان حقاً ، يملك امكانيات ثرة
والحاضر سيغدو حافلا بكل مستقبل آت ...
وما الفهم غير الشعور بالقدرة على العمل ...

. . .

ما أشبه حياتنا وهي تمر أمامنا ، بهذه الكأس المليئة ،
ماء مثلجاً ، تمسك بها يدا محموم ، يريد أن يشرب .
وأن يشرب كل مافي الكأس جرعة واحدة ،
وهو يعلم مع ذلك بأن عليه ان يتريث ،
ولكنه غير قادر على دفعها عن شفتيه الملتهبتين .

. . .

كم من مرة تلاشت فيها رغباتي كالضباب ،
عندما كنت أنهض من سريري ، وانا جد ملتهب ،
متجهاً صوب شرفتي لأمتع ناظري بالسماء الرحبة الهادئة ،
وانت ياحميات أيامي الماضيات ،
قد كنت لجسدي أكالا مميتاً ،
ولكنه أكال الروح التي لايصرفها عن الله شيء ،

. . .

لقد أردت ياناتانابيل ، ان أرقد في رطوبة الأرض ،
كنبتة حية ، والى الأبد ...
ثم رحت افتش في نضوب الجسد عن تحرير للروح ...

آه ! ناتانابيل ، ان بذرة النهار قد تفتحت في اخيراً ،
واني احس كأن وجودي بحاجة كبرى لان ينغمر في الجديد ،
انني في انتظار بلوغ ثان ...
لقد مرضت ، فسافرت ، ونقاهتي العجيبة ، ياناتانابيل ،
كانت عودة لي الى الحياة من جديد ،
فولدت ثانية ، مخلوقاً جديداً وتحت سماء جديدة .
فلتكن رؤاك جديدة في كل لحظة ،
والحكيم الحكيم من يعجب ويدهش من كل شيء .

. . .

احرص ياناتانابيل ان تضع كل سعادتك في اللحظة الحاضرة ،
فلقد حملت معي في ذاتي كل ثروتي ،
كما تحمل نساء الشرق الشاحبات كل ثرواتهن معهن ،
لقد استطعت ، ان اشعر في اقصر لحظة من حياتي ،
بكامل ثروتي معي بفضل وجدي وحده ،
لقد تناولت بثبات ، كل ثروتي بكل قدرتي ،

. . .

اني انظر ياناتانابيل الى المساء كما لو ان النهار كان عليه ان يفنى
فيه ، وارنو الى الصباح ،
كما لو ان كل شيء يولد فيه .
ان الثروة الوحيدة عندي انما هي الحياة .
واقصر لحظة من لحظات الحياة ، اقوى من الموت ،
وما الموت نفسه سوى اجازة لحياة اخرى ،
كيما يغدو كل شيء مجدداً على الدوام ،

. . .

انها لسعيدة ، ياناتانابيل ، تلك اللحظة التي يكون فيها ،
كلامك داوياً وكل ماتبقى من الزمن يصغي ،
ولكن عند ماتتكلم اياك ان تصغي ...
واحرق في ذاتك كل الكتب .
فانا اريد ان اعلمك الا تكتفي بأن تقرأ ،
ان رمال الشاطىء عذبة ،
بل يجب ان تتحسس ذلك قدماك العاريتان .
فكل معرفة لاتسبق بتحسس هي باطلة ،

. . .

لقد تقربت بيدي كل شيء بشجاعة فائقة ،
وآمنت بحقوقي في كل موضوع يتفق ورغباتي .
ومع ذلك اقول لك ياناتانابيل ، ان مانتمناه ونريده ،
ليس ابداً التملك بمقدار ماهو الحب ،
فبالحب ، كان كل شيء يتلون امامي بألوان قوس قزح ،
وكل جمال كان يتشح ويزدهي باصباغ حبي .

ليلة العيد

بقلم

جورج سالم

كانت أم سمير تفكر :

لقد انتهيت من اعداد كل شيء ، هذه هي المائدة قد هيئت على احسن شكل ، الصحون نظيفة ، والطعام امسى جاهزاً ، قسمت الخبز ووضعت الاقداح والملاعق والسكاكين والشوكات ، لم انس شيئاً البتة . حتى المملحة المستديرة احضرتها لكيلا اقوم وانا جالسة الى المائدة .. ليس الا ان يأتي سمير فنبدأ عشاءنا وسهرتنا . ستكون هذه السهرة رائعة . لقد اعتنيت بالطعام اعتناء لم اعرفه يوماً ، ياالهي لكم تمنيت ان اسهر هذه السهرة مع سمير ، انني اشكرك اللهم لانك ستحقق لي هذا الحلم الجميل .

سأنظر اليه طوال الوقت ، نعم سأنظر اليه ، فأنا لاأراه الا قليلا ، لأن وقته موزع بين العمل وبين رفاقه ، وليس لي لحظة واحدة اتمتع فيها برؤيته . اما الليلة فقد اقسم ان تكون السهرة لي بكاملها ، انه الحلم الذي يداعب جفني منذ ان عاد الى الجامعة .. يوم كان غائباً ، كنت اعزي النفس بأمنية عودته ، وهاهو ذا قد عاد بعد فراق خمسة اعوام ، وان الامنية على وشك ان تتحقق .

لاشك انه اثمن من ولد ، فهو الاخ والزوج والوحيد . لقد مات ابوه وهو صغير يحبو . وكان علي وحدي ان اعتني به ، والله يعلم انني ماقصرت في ذلك ولاتوانيت ، ولقد كبر وكان كل شبر منه بل كل اصبع يكلفني نذوراً وتعباً طويلا . كنت اغسل الثياب وامسح الغرف ، وكنت ارى صورته فوق كل قطعة من الارض التي انظف .

نظرت ام سمير الى الساعة ، كانت تشير الى الثامنة والنصف .. لقد مضى ليأتي ببعض الحوائج .

– لن اتأخر ياامي ، ربع ساعة فقط .

كان ذلك في الساعة السابعة .. اتراه اصيب بسوء .. لاسمح الله . لايزال هناك متسع من الوقت .

قلت له :

– لاتتأخر ، سنتعشى ونستريح ثم نسمر ونلعب بالورق ، ومتى حان وقت الصلاة ذهبنا الى الكنيسة معاً لنشارك في صلاة منتصف الليل . صلاة عيد الميلاد ..

وهكذا ملأت فراغ الوقت كله بهذه المشاريع . انني اخاف ان يكون التقى بأحد رفاقه ، وما اكثرهم ، فاستصحبوه الى حانة من الحانات ، يالهم من شبان : لقد نصحتهم مراراً ان يأتوا ويسهروا في بيتنا ، ولكنهم لم يبالوا بما اقول ، ولكن لا ، لايعقل ان يمضي معهم ، ألم يكن قد وعدني بشرفه ، ثم اين يذهب بالقسم ، لقد اقسم لي بتربة المرحوم ، وصورة العذراء .

– أهذا انت ياسمير ؟ لقد كنت قاصداً منزلك .

– أهلاً وسهلاً .

– سنمر معاً على سامي ثم نمضي بعد ذلك ..

– ولكنني لااستطيع ان اسهر معكم هذه الليلة .

– خيراً ان شاء الله ، ولماذا ؟

– سأعود الى البيت .

– لاحاجة للمزاح الآن .

– ولكنني اتكلم جاداً ..

– ولماذا تقضي سهرة العيد في البيت ، سنلتقي جميعاً في النادي .

– اما الليلة فلا ..

– ولماذا ؟

– لقد وعدت امي ان اعود لنسهر معاً .

– الله ! الا تزال بليداً .

– لقد اقسمت لها ..

– كفى كفى ، كنت اظن ان هناك سبباً اعمق .

– ولكن

– لاحاجة للنقاش

– وغمز سميراً بعنيه وأضاف :

– سيأتي (الشعب) بأجمعه : كلود وعايدة و ..

اثارت هذه الاسماء في نفسه عاطفة حب صغيرة كانت في دور التكون فقاطعه قائلاً :

– يكفي لقد فهمت .

حينما تخيل سمير هذه الباقة من الفتيات ندم على قسمه ، ولكنه لايزال يشعر بقيود تشده الى البيت .

– ماذا تظن بي امي ، لقد وعدتها . وكنت خرجت لربع ساعة فقط اشتري فيها بعض الحلوى ..

– سنشتري ذلك غداً ، انقل السهرة من هذه الليلة الى ظهر الغد ، أي في بأس ذلك ؟

وخيل الى سمير انه اقتنع ، وان كان هناك : في قلبه ، شيء يضطرب قال في نفسه :

– ستنتظرني قليلا ثم تنام ؛ فلن تراني حين اعود ، أما غداً فسأعتذر اليها . وسوف تقبل اعتذاري .. ومضى .

تتحرك عقارب الساعة وتترك آثاراً من الالم والامل على تقاطيع وجه ام سمير . فتزداد اخاديده عمقاً واتساعاً .

– الى العاشرة بدقاتها الكاملة .

وقامت الى الطعام تسخنه للمرة الثانية . وتثاءبت قليلاً .

– لقد تأخر سمير . لماذا تأخر يارب . أليس من أمل ان يأتي الآن ؟

وارهفت اذنها لتلتقط صوت المفتاح يخش في ثقب الباب . ولكن ما من صوت .

عادت الى طراحتها وبسطت على حضنها يدين كبيرتين خشنتين قد تحفرتا وتآكلتا من كلتا صفحتيهما . وراحت تحركهما باضطراب اذ يصعب عليها ان تجمع قبضتيها ، وتثني اصابع يديها . انه اثر من آثار العمل الطويل . ولبثت تنتظر .

– لقد كان سمير ، وهو صغير . افضل من الآن . كان مطيعاً يجيئ ويستجيب لأوامري . كان يطيعني لأنه كان بحاجة الي . اما اليوم وقد اصبح له راتب شهري . فلم يعد يهتم بي .

وزجرت بيدها دموعاً اوشكت ان تتساقط

– لم يفده العلم كثيراً . لقد اخذ من ابيه بعضاً من صفاته . كان ابو سمير يضربني ليأخذ اجر عملي . اخشى ان يصبح سكيراً مثل ابيه . لقد اودى به السكر الى مرض في كليته .. وتوفي ، واحسرتاه ، شاباً ..

عادت بها ذاكرتها الى زوجها . لقد توفي منذ عشرين عاماً . كانت تحبه على سكره واخلاقه الفظة، يبقى الزوج رجلاً مهما كانت اخلاقه .. وهيهات ان يعوض .

سمعت ام سمير صوت جرس .

ـ انه جرس الصلاة ، انها الحادية عشرة والنصف اذن ، بعد نصف ساعة ستبدأ الصلاة . هل اقوم فأرتدي ثيابي ؟

وترددت لحظة .

ـ لا . لن اذهب وحدي ، فقد يأتي وانا غائبة . لقد وعدني وسوف يأتي لامحالة . سأنتظره . لعله ذهب الى السينما . لقد حان وقت عودته . سأطلب اليه ان يقص علي الرواية التي شاهدها .

ثم كانت الساعة الثانية عشرة ، وابتدأت الصلاة . فاشتركت فيها امسمير وهي في منزلها .. اي بأس في ذلك . انها تنتظر ..

ـ مارأيك بالويسكي ؟ للأيام العادية مشروبات . ولليالي الاعياد مشروبات اخرى . مارأيك ؟

ـ ...

ونظر سمير الى ساعته . كانت تقارب الثانية .

ـ هلم بنا .

ـ (بكير)

ـ يكفي ، لقد شربنا ورقصنا واكلنا . هل يشترط ان نعود صباحاً .

ـ طبعاً . غداً تعطيل .

ـ يظن انك نعست .

ـ لم انعس . ولكن ..

ـ انه ليس على مايرام هذه الليلة !

لما اقترب سمير من المنزل . دهش للضوء ينبعث من الغرف . لقد ظن أن سيجد كل شيء نائماً . فاذا البيت لايزال كما خلفه في الساعة السابعة . ففرك عينيه .

فتح الباب . فنقرت الساعة الصفراء الكبيرة نقرتين اثنتين .

ـ عجيب . الا تزالين جالسة هنا ؟

ـ كنت انظر رجوعك .

ـ ولكن وقت العشاء والصلاة مضى ..

ـ كنت انتظرك ..

واراد ان يقول شيئاً . ان يعتذر . ان يشرح لها الوضع . ولكنه عجز عن ان يفتح فه . فأطرق ينظر الى الارض . اذ ذاك نهضت امه الى الطاولة ترفع عنها الطعام البارد والصحون النظيفة ..

ـ عفواً لقد تركتك تنتظرين طويلاً ..

وابتسمت ام سمير ابتسامة صفراء شاحبة

ـ لابأس . سأنتظرك وان تأخرت ،. سأنتظرك دائماً .. دائماً ولو توقفت عقارب الساعة .

حلب جورج سالم

عمر النص

بقية مانشر على الصفحة «٥٨»

جر هذا الموقف اللاإنساني الذي تحدى الشاعر فاضاعه ،وحطم امله وجرعه غصص العذاب بعد ان شهد بعينيه مصرع حبه .. ثم نمضي بلا وعي مع الشاعر الى آخر قصيدته التي ختمها بهذه الابيات التي تنطق بالثورة والنقمة على غريمه ، وتهدر باليأس المرير الغالب

غدنا واحد ! ولكنه الخلد
لديه ... والموت لي والبلايا!
جاء يزهى.. وجئت احمل جرحي
بالزهـــو المــــنى وبالدمايا!
تنطق الامنيات في فمه البش
وتعيـــا بنطقهـــا شفتـــايا
وهو بالمسك ضمخت راحتاه
وبدمعي انا ارتوت راحتايا
عبثاً يسألون: ماخطبه اليوم؟
.. فقد آن ان تجف رؤايا
في غد يدخل الربيع صباه
وانا في غـد يموت صبايا !!

هكذا تتجلى لنــا موهبة شاعرنا في المجالين .. في مجاله العاطفي النفسي .. وفي مجاله التأملي الفلسفي ..

وكان ـ في الحق ـ موضع اعجابنا في كليهما معاً ..

ولقد كنا ـ في مجاله العاطفي ـ مشدوهين من هـذا الحب المتفجر من قلبه النقي العف .. هذا الحب الذي فار احساسه لحبيبته فيه،وتفطر قلبه اسى حين فجأته الحبيبة في الجفاء والصدود .. وكنا مفتونين بهذا البث الرائع الذي فاه به الشاعر .. مأخوذين بتلك الشكوى التي زلزلت قلبه ..

ولكننا ـ في الوقت ذاته ـ كنا نشاوى من عـــدم استكانة الشاعر للعاطفة وحدها .. معجبين بتحويله هذه الطاقة المتفجرة المتوهجة الى طاقة هادئة مبدعة من التأمل الفكري العميق في الحياة والوجود .. فكأن نضجه العقلي ، وتجاربه التي استمدها من الحياة ، قداحالت اللظى المتأجج في جوانحه، الى هدوء تأملي عميق دقيق هذّب عاطفته وسما بذاته ..

ولعل مرد هذا التجوهر الذي انتهى اليه تأمله هو الحب ، لان الحب ـ كما قيل ـ « اتجاه وسلوك ، هو الاستطلاع الدائم للكون، والرغبة النهمة في المعرفة ، ثم هو التعاون والتسامح». طوبى للنقية قلوبهم انهم يعاينون الله ! .

دمشق سعد صائب

الانعاش الريفي

بقلم

الدكتور عدنان شومان

ظهرت منذ الحرب العالمية الثانية حركات تحرريه في مختلف البلاد المتخلفة اقتصاديا وخاصة منطقة الشرق الاوسط كانت نتيجة للوعي الشعبي المتزايد لقضايا هذه البلاد القومية، وكان للانتصارات القويه التي احرزتها هذه المنطقة ضد طغيان الاستعمار وتحطيم احلافه ومؤامراته اثراً كبيراً في نفوس شعوبها وتصميماً عنيداً في سبيل التحرر ورفع مستواها الاقتصادي والاجتماعي .

وكانت النظريات الاشتراكية والاقتصاد الموجه احدى دعائم هذا النزوع الى الحرية فارتبط النضال القومي في هذه المنطقة من العالم بنضالها في سبيل بناء دعائم الحياة الاقتصادية فيها على اسس تقدمية سليمة تعتمد على قواها وتنمي ثرواتها الطبيعة وتعمل على ازدهار الحياة فيها وتحسين شروطها لتوفير الفرص المتكافئة لجميع المواطنين كي يساهموا بحسب مقدرة كل منهم في دور البناء الجبار، البناء القومي التقدمي الذي يقف شامخاً امام الاستعمار ويصد مطامع الطامعين .

وبما ان ٨٠٪ تقريباً من سكان هذه المنطقة من العالم هم في عداد السكان الريفيين لهذا فقد بادرت الحكومات التقدمية الى تخطيط المشاريع لانعاش الريف ورفع مستواه الاقتصادي والاجتماعي .

فماهو برنامج الانعاش الريفي ؟

لقد اختلفت الآراء حول تحديد مفهوم الانعاش الريفي فبعض الباحثين ينظرون الى الانعاش الريفي كخطة لتنظيم تعاون افراد الشعب مع الدولة في سبيل تحسين الشروط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لابناء الريف وذلك كي يشعروا بارتباطهم القومي وبدورهم في تقدم وازدهار الوطن . ويفهم من هذا ان تحقيق برامج الانعاش تقوم على عاتق الافراد والدولة على السواء وتكون الغاية من هذه البرامج خلق افراد يؤمنون بقوميتهم ويرتبطون بوطنهم ارتباطا وثيقاً يجعل منهم افراداً منتجين ومواطنين صالحين .

ويزيد البعض الآخر على هذا بالقول بان برامج الانعاش يجب ان تمتد الى المدن لان مفهوم الانعاش يضم جميع افراد الشعب سواء القرويين او المدنيين . ويعرف هؤلاء الانعاش الريفي على انه انعاش اجتماعي يضم جميع المواطنين يهدف الى التقدم الاقتصادي والاجتماعي ويعتمد على مساهمة الافراد الممكنة في سبيل تحقيق ذلك الهدف . غير انه في الدول المتخلفة اقتصادياً يأخذ مفهوم الانعاش الشكل الريفي باعتبار ان الاغلبية الساحقة من سكان مثل هذه الدول يعتبرون في عداد سكان الارياف .

اما الخدمات التي يمكن لبرنامج الانعاش الريفي تقديمها فقد قسمها بعض الباحثين الى ثلاثة انواع :

خدمات مباشرة وهي التي تكون في مجالات تحسين النشاط الزراعي والاقتصاد المنزلي وتحسين الشروط الصحية ومحاربة الامية وبناء المدارس وتنظيم اوقات الفراغ وتأليف الجمعيات التعاونية والنوادي الثقافية والرياضية وغيرها . والنوع الثاني يكون لخدمات مساعده للبرنامج وتتكون من اقامة الدورات التدريبية ومراكز الابحاث والتجارب الفنية . واما النوع الثالث من الخدمات فهو عبارة عن الخدمات التي تؤديها الدولة بشكل عام في جميع البلاد لتحسين الطرق العامة واقامة شبكات الري والجسور والكهرباء واعادة النظر في نظام الضرائب وانظمة الملكية الى غير ذلك من خدمات تكون على نطاق وطني عام .

دور الدولة في تحقيق برنامج الانعاش الريفي

يمكن ان نقسم الآراء حول دور الدولة في برنامج الانعاش الريفي الى فئتين : تؤكد جماعة الفئة الاولى على دور الدولة وخاصة

في البلاد المتخلفة اقتصاديا والتي تحتاج الى الانعاش لان الشعب في مثل تلك البلاد لايستطيع بوسائله الخاصة المحدودة ان يغير شروط حياته الاقتصادية وعلى الدولة ان تضع الحلول الجذرية وتخطط المشاريع وتقدم على تنفيذها بشكل يؤمن المصلحة العامة وينعش المجتمع. ولايمنع هذا القول من ان تقوم الدولة ايضاً بتدريب الافراد لايجاد قادة محليين ولنشر روح التعاون والاعتماد على النفس بين افراد المجتمع .

اما جماعة الفئة الثانية فتؤكد دور افراد الشعب ومساهمته في تحقيق مشاريع الانعاش وتقول بان نجاح اي مشروع محلي يقوم به الافرادبانفسهم يخلق الاعتماد على النفس ويشجع المناطق الاخرى المجاورة لتقوم بعمل مماثل . لهذا يجب ان يقتصردور الدولة في المشروع على المساعدة الفنية التي لايستطيع الافراد المحليين تأمينها بانفسهم، فيجب الاعتماد في الدرجة الاولى على مساهمة الافراد كما يجب على الدولة تقديم المساعدات اللازمة بشكل لايخلق في نفوس الافراد روح التواكل .

فجميع الآراء اذاً متفقة على قبول مساهمة الدولة وافراد الشعب في مشاريع الانعاش غير ان الاختلاف يقوم على دور الاولوية في تحقيق المشروع فجماعة الفئة الاولى تعطي الدولة دور الاولوية بينما تعطيه الفئة الثانية الى مساهمة افراد الشعب. الا اننا نرى ان البلاد المتخلفة اقتصادياً والتي تواجه مشاكل متعددة يستعص على الافراد حلها بانفسهم يكون من واجب الدولة تحمل مسؤوليات الانعاش ورفع مستوى الحياة ليستطيع افراد الشعب في المستقبل تحمل تبعات المساهمة الناجحة في اي مشروع يفيد الصالح العام . هذا بالاضافة الى ان الوضع الاقتصادي الراهن في البلاد المتخلفة اقتصاديا وخاصة بلاد الشرق الاوسط لا يسمح للافراد بتحقيق اي مشروع انعاشي بانفسهم لوجود فئة قليلة تسيطر على اقتصاديات وامكانيات الوطن وتستغل الاغلبيه في سبيل تأمين مصالحها وزيادة ارباحها. فالاقطاعية تسيطر على خيرات الارض ووسائل الانتاج وتستغل اهالي الريف الذين يبلغون حوالي ٧٠٪ من السكان ، وكذلك اصحاب رؤوس الاموال في المدن يستغلون العمال باعطائهم اجوراً زهيدة ليزيدوا في ثرواتهم على حساب عمالهم ، اما التجار فيستغلون الوقت المناسب لاستثمار جهل الفلاح وحاجة سكان المدن المباشرة فيتلاعبون بالاسعار ويمتصون الدخل البسيط لافراد الشعب . ان هذا الوضع يؤدي بدون شك الى زيادة نسبة الفقر والمرض والجهل وبالتالي الى عدم تحقيق العدالة الاجتماعية .

ان بلاداً هذه حالتها لا يستطيع افرادها بما لديهم من وسائل وامكانيات ان ينعشوا انفسهم بانفسهم مالم تبادر الدولة الى سياسة الاقتصاد الموجه ورسم المخططات لتحقيق العدالة الاجتماعية بازالة اسباب الفقر والجهل والمرض كي تتاح الفرص المتكافئة لجميع افراد الشعب للانتاج والابداع .

ثم انه لايكون لاي مشروع انعاشي من معنى اذا لم يكن للدولة اتجاه تقدمي انقلابي اشتراكي يسعى لازالة اسباب التفاوت في توزيع الثروات ويغير نظام الملكية ويمنع استغلال الآخرين بشكل يؤمن الصالح العام ويعطي فرصاً متكافئة لجميع المواطنين. ان اتجاهاً تقدمياً كهذا يخلق في نفوس افراد الشعب روح التعاون ورغبة المساهمة في تحقيق مشاريع الانعاش وبناء التكامل الاقتصادي والاجتماعي .

القواعد التي يجب ان يبنى عليها برنامج الانعاش الريفي

لقد اوصت اللجنة المختصة في منظمة الامم المتحدة والتي درست تجارب الانعاش الريفي في عدد من البلدان المتخلفة اقتصادياً ، ببعض القواعد والاسس التي يجب ان تبنى عليها مشاريع الانعاش الريفي ، وهذه القواعد لاتعتبر نهائية وثابته بل هي قابلة للتغيير والتطوير بحسب الاوضاع المحلية المنطقة التي يوضع المشروع لانعاشها. وهذه القواعد يمكن ان تلخص بمايلي :

١ - عند تخطيط مشروع الانعاش الريفي يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار الحاجات المستعجلة للمنطقة.

٢ - تنسيق الجهود ووضع برنامج متعدد الاهداف.

٣ - محاولة كسب ثقة الاهالي بنجاح المشروع لان لموقفهم اهمية كبرى وخاصة في المرحلة الاولى من التطبيق.

٤ - السعي لخلق روح التعاون وفكرة مساهمة افراد الشعب في المشروع.

٥ - العمل على ايجاد قادة محليين وتدريبهم على تحمل المسؤولية ليستطيعوا في المستقبل ادارة المشروع بأنفسهم .

٦ - تشجيع الاهالي على تأسيس النوادي والجمعيات لتنظيم اوقات الفراغ بأعمال منتجة اجتماعياً .

٧ - على الدولة ان تساهم مادياً وفنياً في تحقيق المشروع.

٨ - تحضير الاشخاص والموظفين الذين سيتولون تحقيق المشروع .

٩ - القيام بتجارب تمهيدية في منطقة واحدة لمعرفة مدى صلاح المشروع قبل تعميمه على المناطق الاخرى.

١٠ - يجب ان يسير المشروع جنباً الى جنب مع التقدم الاجتماعي والاقتصادي العام بجميع اجزاء الوطن لان انعاش منطقة ما من الوطن يعتمد اعتماداً كبيراً على اتجاه الدولة وما تقدمه من خدمات عامة في سبيل اصلاح الطرق وانشاء شبكات الري وبناء الجسور والمدارس العليا والمستشفيات وغيرها من الخدمات العامة .

في البدء والنهاية

شعر

الياس الفاضل

ترى يا ترى ، ماتكونين
وماذا بهذي الجفون الكسالى ؟!..
واي بحار ، واي زوارق حب
واشرعة من نجوم ..
واي مساكب فل .. واي كروم ،
تخبأ خلف الجفون الكسالى ..
تمدّ على الدرب لو تبسمين ..
ولو انت لي تهمسين ،
وادعوك يا فرحتي
ولا ترحلين
لماذا ؟ .. وانت غريبة ..
وانت كنفسي غريبة ..
تعيشين في الضفة الثانية ،
مع الريح والثلج والاغنيات الكئيبة ..
وفي الجهة النائية ،
بلا وله أو ذكريات خصيبة ..

★ ★

لانك يا أنت ، يا حلماً عسلاً ..
يا جناحي الطليق ..
لانك يا حلوتي
لانك أنت ملاذي الوحيد الامين ..
دعيني ألوّن من وجنتيك شحوبي
واصنع من لون عينيك لي قمراً اخضراً لدروبي
فقلبي الحزين
يغنيك قلبي الحزين
يغني بعينيك لحن حياتي الحزين ..

★ ★

لانك ، يا انت .. يا حلوتي
لانك انت ملاذي الوحيد الامين ..
احبك حتى تجف الدماء بقلبي
وتيبس فيه العروق ..
وتسكت دقاته
وتخنق آهاته ..
وحتى تموت الرؤى في عيوني
ويغرق صدري بوادي الفناء العميق .. العميق ..

دمشق **الياس الفاضل**

ظاهرة الشهر

الواقعية ثانية

تتميز ظاهرة هذا الشهر ببحث أمور الادب والتحقيق في مدي مانال من مكاسب ومغانم تدفعه خطوات الى المشاركة في حل أزمة الانسان الحديث ، وبناء العرب مجتمعاً وأفراداً .

وكانت الظاهرة الناتجة عن هذا البحث ردة فعل تجاه السطحية والافتعال اللذين سيطرا على بعض النتاج باسم الواقعية لان اكثر الكتاب الواقعيين خضعوا لتوجيه الشعارات والمبادىء التي تتطلب نشرها بين القراء الذين يتناولون الاعمال الادبية على أنها فن لاعلى أنها دعاوة لهذا الذهب أو ذاك .

ويكاد العدد الثاني من مجلة « الشهر » يكرس لمناقشة النكسة التي تلقاها الادب على أيدي هؤلاء الواقعيين . ففي بحث للدكتور «عبد القادر القط» عالج موضوع القصة ولاحظ ان اللون الاسود يطغي على مجموعة من القصص المصرية، وقرر « أن كثيراً من كتاب القصة لايختارون شخصياتهم الا من بين الطبقات التي تتيح لهم المجال لكي يصوروا الجانب المظلم من الحياة ، وهم الى جانب ذلك لايختارون من حياة تلك الشخصيات الا الجوانب الحافلة بالبؤس والشقاء متجاهلين ماقد يكون في حياتهم من جوانب أخرى اكثر اشراقاً وأميل الى التفاؤل . » ويعلل ذلك بتخلف المجتمع وفقره وحرمانه وبأن الجوانب المشرقة ليست الطابع الغالب على الحياة وبأنها لاتمثل مافي نفوسهم من الضيعة والاحساس بالفجيعة ، وبأن الصراع بين الاقطاعيين والشعب لم يحقق انتصاراً كاملاً بعد الحرب . وقد اقتضى تزايد الوعي الشعبي من الكتاب ترك الاتجاه الرومانسي ومعالجة المشاكل الاجتماعية بشكل واقعي ..

« والحق أن الواقعية لاتتمثل في اختيار الموضوع بقدر ماتتمثل في طريقة معالجته . فالواقعية طريقة خاصة في ادراك الحياة والنظر الى الاشياء على اختلاف ألوانها ، فالحاح كتابنا على تلك الصور المظلمة المتشائمة هو نتيجة فهم خاطىء عند كثير منهم لطبيعة المذهب الواقعي وتضييق لدائرة ابداعهم ينتهي بالقارىء في كثير من الاحيان الى السقم ثم الى الشك في صدق مايقرأ من قصص لاتمثل جوانب المجتمع المختلفة كما يمارسها هو كل يوم وهو الى جانب ذلك يصرف كثيراً من هؤلاء الكتاب عن التجويد الفني اعتقاداً منهم بأن الموضوع وحده بما فيه من واقعية في رأيهم يمكن أن يغني عن كثير من العناصر الفنية الاخرى التي لاغنى عنها للقصة الناجحة » .

اما الاستاذ « ثروة اباظة » فقد عالج في بحثه : « المذهبية في القصص » اسباب السطحية والافتعال عند اكثر الواقعيين وعللها بكثرة المجلات ورواج القصة القصيرة ، هذا الفن الذي امتهنه أشخاص غير موهوبين ولامثقفين فانضموا « الى فئة شأنها ان تصفق لكل من ينضم اليها » ولكنهم لم يدرسوا من مذهبهم شيئاً وانما اقتصر واعلى المبالغات في التصوير فالأغنياء جامدو القلب أغبياء والفقراء طيبون رحماء .. دوماً وبدون استثناء . وهذه الخطوط الكبيرة التي تجمعهم تجعلهم يخطؤون الواقع كما تجعلهم نسخاً مكرر بعضها عن بعض تدور ضمن دائرة ضيقة للغايه .

الالهام والشعر

وحين عالج الاستاذ « أحمد زكي » فكرة « الالهام في الشعر » تحدث عن زيف فكرة الالهام وبين ان الشعر حرفة تحتاج الى تمرس وكد ومهارات وأسباب واعية وتصاميم يقظة يحتاج اليها الشاعر بعد ان يمر بفترة « الحال الشعري » التي تسبق الابداع مباشرة وتهدف الى الانتقال من المجال الروحي الى المجال الزمني في ديناميــة الابداع . والشاعر الكبير هو الذي لايجعل انفعاله خاضعاً لهذه القوالب المكرورة . يتحدث عن الشاعرين نزار قباني وعبد الوهاب البياتي ويبين ان عملية الابداع عندهما ارادة وصنعة يواتيهما طبع أصيل ، فاذا تركناها الى « شاعر من شعراء الموقف الهادف .. الملتزمين المجتمع بالتزامات بطولية كما يحلو لهم ان يقولوا واعنا تهالكهم في ظلمات التعثر ، ونسوا التزامات الفن وممارسات الفن وموروثات الفن ! أعرضوا عن كل ذلك ، متكئين عل مايخيل اليهم أنه الطبع ، مستوحين الكلمة المعبرة أو الشعار المصطلح عليه ! « حتى الكبير فيهم يتداعى اذاناقشنا شعره لنعرف كيف يرصفه .. وأقول يرصفه لانه فيما يبدو لايريد البناء ، والا فلنقرأ على سبيل المثال هذه المقطوعة من كلام طويل :

انا لو لم نكن نملك غير الدمعات

لهووا عرقي جميعاً ياجميلة
غير أنا نملك اليوم اتحاد الشرفاء

« استحالة ضمن استحالات كثيرة يختمها بهتاف « جماهيري » فيكون ذلك كله ختام نضال رهيب مع نفسه ومع شعاراته ومع اصطلاحات المادية التي يدين بها . ثم يقف لاهثا ليؤكد في مثل متواضع أن الخلق الفني تجارب فجة يقدر عليها أكثر من صدر له في « جميلة » المجموعة الشعرية التي نشرتها أخيراً دار الفكر . وأما الطبع والتمرس على أسباب الفن الحقيقية فأشياء ليست في الاعتبار لأنها لاتخدم موقفهم الذي يناضلون من أجله .

« شعراء هذه الأيام .. هؤلاء الذين ينشرون مثل « جميلة » و « أغاني الزاحفين » .. لايفون بأي تعهد فني ، ولا يلتزمون الا موقفهم الاجتماعي المقتر . وأما التزامهم الفني فلا يعرفون حدوده ولا آفاقه ولا يقدرون على أسبابه ، لانه دراسة ومران وجهد . ومن هنا نستطيع أن نقول مطمئنين ان عملية الابداع لدى الشعراء الكلاسيكيين المجددين تكشف عن رسوخ قدم في مضمار الفن ، ويتضاءل امامهم شتيت هائل ممن يسمون أنفسهم « الشعراء الاحرار » .

ــ أحيت « رابطة الكتاب العرب » ذكرى الشهيد عدنان المالكي وكان من أبرز خطباء الحفل الاستاذ رياض المالكي الذي حث الاحزاب على الاتحاد القومي

ــ اجتمعت « جمعية الأدباء العرب » في الشهر الماضي مرتين الاولى في قرية الهامة فى حديقة الاستاذ المفكر « عزمي موره لي » وقد بحثت فيها مسألة اقامة « المسرح المفتوح » حيث يكون الديكور فقط في توجيه الاضواء على الممثلين الذين يقفون على المسرح بملابسهم العادية . وبحث في الاجتماع الثاني أمر توسيع نشاط لجان الجمعية للدراسات والشعر والقصة ، وانشاء دار نشر تقدم نتاج الادباء العرب والاجانب للقارىء العربي .

ــ ألقى الاستاذ « منير سليمان » في « الجمعية السورية للفنون » محاضرة بعنوان « الفن في سورية » تحدث فيها عن النشاط الفني في الرسم والنحت والموسيقى .

محاضرة الشهر :

ــ كانت محاضرة الدكتور « ابراهيم كيلاني » في « النادي العائلي » عن الادب الجزائري الحديث ، وقد لخص المحاضر صفات الادب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية بأنه أدب قومي مستقل متصل بالجزائر ، والادباء الجزائريون هم كتاب منبثقون من صميم الشعب ، ويكادون يكونون طليعة الادباء العرب وعياً وثقافة وعمقاً وتجديداً في القصة العربية . وقد اقتصر الحديث على الأديبين الجزائريين : ادريس الشرايبي صاحب رواية « التيوس » والروائي « محمد ديب » صاحب « رواية الجزائر » .

ويعد الدكتور ابراهيم كيلاني في طليعة أدباء سورية نشاطاً في المحاضرات ، وقد اشتهر بذلاقة لسانه ورشاقة عرضه للمادة التي يتحدث عنها . وهو الآن يلقي محاضرات في جامعة دمشق عن النثر الفني في العصر العباسي ، ويعد دراسة واسعة عن الادب الجزائري الحديث سوف يطبعها منفردة كمقدمة لترجماته لاعمال هؤلاء الادباء العرب .

أما النادي العائلي الذي ألقى فيه الدكتور محاضرته فهو ناد حديث أسسه الدكتور جورج شلهوب سنة ١٩٥٥ ومايزال يترأسه ، وقد انتسبت اليه مائتا أسرة أو اكثر لتمتين العلاقات الاجتماعية بين الافراد وفي النادي نوعان من الاجتماعات الاول اسبوعي يجتمع الاعضاء المنتسبون للنادي ويلقي واحد منهم كلمة تبحث في مشكلة من مشاكل حياتنا الحاضرة والثاني محاضرة عامة كل اسبوعين وغالباً يكلف محاضر من خارج النادى . وفي النادي مكتبة حديثة تقوم على تبرعات الاعضاء ، وسوف يخصص لها قسم من ميزانية النادي .

ولعل الشيء الوحيد الذي يمتاز فيه النادي على غيره هو احداث فروع ثلاثة للنشاط فرع ثقافي يتولى تنظيم المكتبة والمحاضرات .

وفرع اجتماعي ينظم لأعضاء النادي رحلات قصيرة توفر لهم الاطلاع والتسلية .

وفرع للأطفال ليس له مثيل في سورية اذ هناك سينما والعاب وكتب ويوم خاص بهم .

ومن العراق

تألفت رابطة من الادباء تجمع بين الاساتذة علي الحلي وسعدون حمادي ومحمد سعيد سالم وجملة من ادباء الشباب . وقد اخذت هذه الرابطة بعقد اجتماعاتها في سبيل تدارس قضايا الادب ومعالجة قيم الانتاج الادبي في الوطن العربي .

وكذلك استطاع بعض هؤلاء الشباب ان ينشئوا داراً للنشر ذات اهداف ثورية في نوعية الادب ورسالة النشر تحت اسم (دار الفكر الجديد) وقد انتجت اول كتاب لها هو (انسان الجزائر) مجموعة قصائد عربية رائعة للشاعر العراقي علي الحلي .

كما ان الدار تزمع اخراج كتاب ثان عن القصة يشارك فيه ادباء الصف الاول من كتاب القصة العربية الاصلية . فمنا تهنئة طيبة لهؤلاء الشباب ولجهودهم الخصبة في حقل الادب العربي الحديث ورسالته القومية .

رزنامة دائمة في معصمك

اصبحت اليوم معرفة التاريخ ضرورة بقدر معرفة الساعة ، فلذا كان خير مكان لوضع هذه الرزنامة هو اطار الساعة.



فساعة " سيمستر كالندر " التي لا تحتاج الى تدوير تعطيك التاريخ فضلاً عن الوقت بالضبط وتغنيك عن الرزنامة.

وفوق هذا يمكنك بواسطة السيمستر كالندر ان تسبح في الماء حتى ما يزيد عن ستين متراً في العمق دون ان تتأثر دقة الضبط فيها وذلك بفضل علبتها العازلة للماء.

لقد ايدت دقة سيمستر كالندر النجاح المستمر الذي احرزته في مباريات مرصد جنيف و"نيوشاتل".

فالمتانة والدقة والرزنامة تجعل كلها من السيمستر كالندر الساعة الاوتوماتيكية التي توحي اكبر الثقة وتؤدي اكبر خدمة.



انها ضمانة الدقة المستمرة

في كل سنة تساهم افضل ماركات الساعات السويسرية في مباريات مرصدي "نيوشاتل" و"جنيف" وقد احرزت "اوميغا" نجاحاً فريداً في تاريخ الساعات اذ نالت قصب السبق في كل مباريات ساعات اليد سنة ١٩٥٥.

في خلال السنين العشر الاخيرة سجلت اوميغا ارقاماً قياسية في الدقة اكثر من اي ساعة يد في العالم.

ساعة اوميغا سيمستر كالندر الجديدة

هي للرجل العصري ارق الساعات اوتوماتيكية.
لا يؤثر فيها المغناطيس.
لا يؤثر فيها الصدم.
مثلثة الحماية من الماء والغبار.
لا تتأثر بتقلبات الطقس.
من فولاذ خاص ستينلس او من ذهب عيار ١٨.

OMEGA *Calendar Seamaster*

ان اوميغا اكتسبت ثقة العالم